تغريبة القبطي الأخير

اســــــم العمـــــــل	:	تغريبـــــة القبطـــــي الأخيـــــر
النــــــــــوع	:	روايـــــــــــــــــــــــــة
تـــــــــــأليف	:	يوســــــــــف وهيـــــــــب
تصـــميم الغـــلاف	:	
إخـــــراج داخلـــــي	:	عبـــــــــدالقادر فـــــــايز
الطباعــــــــــــة	:	اتيليــــه تــــاتش – المحروســـة
الناشـــــــــــــــر	:	الـــــدار للنشـــــر والتوزيـــــع
المـــــدير العـــــام	:	محمـــــد صــــــلاح مـــــراد
تليفـــــــــــون	:	٠١١٢٥٨٠٠٤٦٧
البريـــد الإلكترونـــي	:	eddar_press@yahoo.com
فــــــيس بــــــوك	:	www.facebook.com/eldarpublish
رقـــــم الإيـــــداع	:	/٢٠١٦
التــــرقيم الــــدولي	:	I.S.B.N.: 978-977-702- -

تغريبة القبطي الأخير

رواية

يوسف وهيب

الدار
للنشر والتوزيع
٢٠١٦

- **ذَهَب**

لا تجعلوا أحداً يتكلم بلسانِكُم
بل اخْطفُوا الكلام
حتى لا يصيرَ شِراكاً لأحلامِكُمْ ..

- **لُبَانُ**

من قال لكم إنني أكتب،
اكشفوا جروحكم له ..
فهي تلعنُ الكُتَّابَ جميعهم،
وتمحو الكتابة ..

- **مــرُ**
  - **الحكاءونَ : الماءُ الذي يجددني**
  - **السامعونَ: الهواء الضامن للاستمرار**
  - **الكتبةُ: حجابُ بيني وبين الناس ..**

هكذا تقول الحكاية

عايدة رزق زوجتي وأمي جوني زكي

وأبي إدوارد وهيب

وكل من عشقوا هذا الوطن

ومصر

أظنكم خيمةً واحدة لغرباء مثلي،

ونهر محبة لا ينضب أبدًا

(١)

قال لي : اكتب يا موريس في أول السطر ما أقول، ولا تسأل :

أينما تكون حمدية

أحاول – كثيراً – انتزاع روحي من طاحونة الماضي،
أنفي – دائماً– تنتصر وتقودني إليها عبر دروب

الرائحة

عقل مراد مرقص

الرسالة رقم ٣٠٥٩

(٢)

عزيزي شوقي :

هي، هي؛ الرسـالة ذاتها التي تصـل إلى الجميع، ورغم إشـفاقي عليه لإصابته بالعمى إضافة إلى الصمم، إلا إنني أرى في ذلك منفعة له ، فماذا يا ترى سيكون حاله لو أنه سمع ما نسمع، ورأى ما نرى؟!

حمدية عبد اللطيف

(٣)

أينما تكون حمدية:

لقد حاولت أنا أيضـاً، كنت أشـكو أكثر مما أشـكو الآن، أنفي كانت السر في عذابي طوال الوقت، لكن الآن اختلفت الشكوى، وعرفت كما كانت الرائحة خيمتي الوحيدة، إذ تزايدت العوادم واحتجبت السماء عنِّي – بفعل الغبار – ولم تعد تراني أو تسمعني غيومها البيضاء المشربة بالحمرة قبل مغيب الشـــمس، والتي كنت أرى فيها أرواح من ذهبوا، وكنت أحســـدهم وهم يطلُّون علينا، يرون كل شـــيء ولا نراهم لذلك سعيت في إثرهم، وفي إثرك أنت بالطبع يا نجواي وسأظل هكذا ...

عقل مراد

(٤)

كتبت أنا موريس كما أملاني عقل في آخر الصفحات المطوية التي لم ولن يقرأها بشر من قبل..

لعلك تسمعينني الآن يا حمدية:

لم يفلح الأطباء في إيجاد سبب عضوي لهذا النوع من العمى، وأنا الوحيد الذي أعرف، وأنت بطبيعة الحال؛ وحذارِ يا نجواي، أخشى أن يعرفوا، ويصبح الجميع عمياناً وهم يرون الوجوه البدوية المقطبة أبدلت رغما عنا جملة إنشائية لا تخرج من القلب، بصلاة "صباح الخير" التي كانت تبدأها بلدنا في الخامسة صباحاً، ولا تنتهي إلا عند آذان الظهر، يرددون: العواف ونهاركم سعيد..

عقل مراد مرقص

(٥)

أيوه.. آلو.. سامعاني يا إنصاف.. أيوه أنا نوال ..

الحالة مسَّخَتْ قوي قوي، وكل حتة عملوا فيها كمين، ما حد عارف يا أنصـــاف يا أختي، لا عارفين نطلع ولا نخش، السـبت اللي فات كنت في ملوي ما أنتي عارفه انه يوم الســوق فاكراه ولا لع يا بت؟!، أيوه يا أختي، والإنجيل الطاهر.. كنت ماشية وحاسة إني غريبة مش م البلد، والوسـوسـة راكباني، ويتهيأ لي الناس كلها باصّـة عليّ، أما إيه، واللي خلى جنتي اتلبشـــت لما وقف قدام بتاع الهدوم، يا أختي قعد يزغر لي ويفح زي الحنش ويقول لي : يا حاجة (شــــوفتي يا أختي الموكوس، أما يقول لي يا حاجة !)

وحياة أم المخلص والبابا كيرلس يا بت عمي ســـــاعتها قلت له – بس في ســري: حاجّة في عينك ، .وراح مكمل : دي حاجات ما تنفعش فـ الأرياف إنت مكانك هنا في البندر، يا بندر، بالصلاةُ ع النبي..

المهم مش ها أطوّل عليك، فُتْ يوميها على أم خلف، بت خالة أمي عارفاها، شـوقية أيوه، أنا جايه لك في الكلام أهه، قلت بالمرة أونســها الليلادي خصـــوصــــي أنها ليلة تمانية برمهات الســنوية بتاعة جوزها المرحوم مندي، ولا تلاقيك نـاســيـاه!، وحياة أم المخلص يا بت يا أنصــاف قعدت وأنا مش مصــدقة لغاية دِلْوَخْتْ إنه مات، يووووه.. ده

حتى وإحنا قاعدين مع حريم العيلة تعدد ونبكي لقيت روحي ها انْفَتَحْ في الضـــحك، قمت ســـاحبة روحي وجري على بيت الراحة وقعدت أضحك لوحدي.

ماهو كان الله يرحمه صدره واقع وفَشّار، ويضحك الطوبة والحجر، آه، ألو، ألوه، يا إنصـــاف، يا إنصـــاف، قطيعة تقطع التلفونات وســـنينها طول عمرها ما تشـــبعش البني آدم من حبايبه – قطيعة ولا يمكن بت عمي زهقت مني – يللا، بركاتك يا بونا عبد المســـيح المناهري انت والبـابـا كيرلس، اســـترهـا عليهـا في غربتهـا وعلى كـل أولادك في المعمودية..

(٦)

وقال اكتب يا موريس من أول السطر،

أختي الغالية حمدية عبد اللطيف:

لم يبق لي سوى شال القطيفة الأسود الذي انتزعته من بين أيديهم، وهم يقصون ملابسها بالمقص استعدادًا لدفنها معها؛ ومعها خيط وإبرة كي تجد ما تستر به نفسها حين تقوم في اليوم الأخير، وتعرفين يا حمدية أنهم يقصون الهدوم، كي لا يسرقها " التربي"، ساعتها يا حمدية، كنت أرى، وأسمع، سمعت النساء تزغرد حين رأين أن الماء الذي يغسِّلْنَ به جثمانها الطاهر لم تنقص منه قطرة واحدة، ولما انكسرت على الأرض زجاجة العطر التي انتوين رشَّها عليها، انطلقت من جسدها رائحة بخور عجيبة، أووووه يا حمدية يا أختي وحبيبتي، هل تذكرين تلك الرائحة، التي كثيراً ما مَرَّغْنَاَ وجوهنا فيها وكلانا يمسك بشفتيه وأسنانه وروحه بثدي من صدرها؟!

تعرفين إنني لا أملك غير هذا الشال، ونفسي أرسله لك، هي ليلة واحدة ستلفين به جسدك، وستجدينني بجوارك، ولعلك انت الوحيدة معي، المسكونة بتلك الرائحة، عندئذ سيهجرك المرض والخوف إلى الأبد.

ربنا يا أختي يمد يده الطاهرة إليك ويشفيك

أصلي لكِ دوماً ..

عقل مراد مرقص

(٧)

عزيزتي هناء عقل الغالية (ريحة الحبايب)

لا أدري يا هناء من منا يسعى في الآخر، نحن أم المكان ؟!

يبدو أن جميعنا نعيش في عماءٍ، فماذا ســـتفعل عيوننا المفتوحة على آخرها في عتمةٍ كهذه ؟!

منذ أيام حدث ما قد يكون مرَّ عليك في رواية ما، أو ربما ما لم يجرؤ أي كاتب على كتابته، ألم أقل لك أن الحكايات مهما تبدلت على الألســنة يكون جوهرها هو، هو إلا في الكتابة فالكاتب خائن، ألم نعش أنا وأنت أيام الجامعة وخلايا التنظيمات، وكنا نرى فيما بعد المكتوب عنها لا يحمل منها ســوى الاســم، أنا لا ألوم أحداً، فهكذا تربينا نرى أشـياء تحدث ونحكي عنها بغير ما حدثت وغالباً ما نحكي عن أشـياء أخرى، هذا إذا سُمِح لنا ..

على محطة الأتوبيس وقفنا أنا وزوجي حســـين وابننا محمود، التفت حسين فجأة وراءه وقال ، هذه هي المكتبة !.

استدار إليَّ بعد أن مقَّقَ عينيه في كل الواقفين بالقرب مني وكأنه يوجه إليهم وعيده، فابتعد بعضـهم وجرى الآخرون للحاق الأتوبيس قال لي : سأدخل هنا يا أم محمود انتظري مكانك، خلِّي بالك من الولد "

نظرت حيث دخل فخطفت عيني المكفنتين بالشيفون الأسود فاترينة – بجوار المكتبة – تعرض ملابس داخلية، سحبت محمود في يدي وطرف عيني على المكتبة، أترقب خروجه خوفاً من أن يضبطني وأنا أتفرج، المهم طردته الفرجة من دماغي وخطفتني الفاترينة التالية، والتالية، حتى ابتعدت عن محطة الأتوبيس وعن المكتبة.

–اخص عليك راجل مهزأ، اخص على دقنك دي كلكم ولاد قحاب !

جريت على هذا الصوت ولمة الناس وعرفت أن مصدره من امرأة مكفنة في الأسود مثلي، وحسين لم يزل يهزها من ذراعها: " عيب يا أم محمود إيه اللي جرى لك، لا إله إلا الله، فين الواد يا ولية ؟! "

خطف صوتي أبصار الناس تجاهي : " أنا هنا يا ابو محمود ..

محمود أهه تعالى بلاش جُرَسْ "

(لازم يحصل كده.. كان ضروري يحط على ضهرها علامة ولا نمرة علشان يعرفها ... هِيَّهْ لو مراته حقيقي كان عرفها من صوتها ع الأقل، و ... و ...)

تعليقات كثيرة سـمعتها، ضـحكت على بعضـها – في داخلي طبعا – وجرحني الكثير منها ...

بالأمس كنت أجلس وحدي بعد أن نام محمود ..

مرت أنصـاف وكنتِ أنتِ معها، وفايزة، كان معاكم شـادي بن موريس، وقعدنا نغني للشـــيخ إمام، وضـــحكنا على أصـــحابنا اللي تابوا عن النضـال من زمان وفتحوا دكاكين حقوق الإنسـان وخصـوصـاً وكالات الوحدة الوطنية

(أشـار لي موريس، بعد أن سـلم أمي البشـكير المملوء بحاجات العيد وفول النابت وطعمية الجمعة العظيمة، وقال لها أمي بتسـليم عليك يا حاجة وتقولك كل سنة وانتم بخير ...

نزلت على بسـطة السـلم ، وشـوشـني : " الاثنين الجاي شـم النسـيم ها نروح شـرق النيل ونركب المراكب، كنت أنا وانت ومديحة بنت خالتي وأنصـاف قريبتكم، جرينا يومها ولعبنا ع النجيلة اللي في الهريفةْ وسـط البحر، ولما حاول الشـبان يضـايقونا سـاعتها، هاج فيهم موريس وقطَّع القميص بتاع واحد منهم ..

أي نعم هوه اتعور في قورته وضـاعِتْ منه السـلسـلة الدهب اللي كان فيها صـــورة العدرا مريم، لكننا رجعنا برضـــه – وهوه معانا – فرحانين ومبسوطين).

ياه يا نوال، تتصوري إن حسين (الاشتراكي الثوري) بعد الشهر الأول من زواجنا، أمسك البُكْ بتاعي، وقعد يفتشه ولما لقى صورة العدرا اللي واخداها منك قطعها، وقعد يخطب فيه، دا حرام ده كفر، وبعد كده نبَّهْ عليَّ؛ إما أبطل أقول صـــباح الخير لأم مايكل جارتنا يا إما يطلقني! وأضاف بأنه يستحسن إنِّي أبطل أقولها من أساسه وخصوصاً لأي حد منكم، كمان قال إن قولة كل سنة وانتم بخير، حرام !

طولت عليك يا نوال كان لازم أفضفض وياكي ..

ربما يرحمني يا نوال يا أختي ، سـلمي لي ع الأولاد وأبوهم وكل سـنة وكل المصريين طيبين ..

أختك حمدية عبد اللطيف

٢٧ ابريل

وحدك يا موريس تكتب و تقرأ هذه الرسـائل، أرسـلت بعضـها كما أوصـاك أصـحابها، لكنك لم تسـتطع إرسـال الكثير منها، لقد حملت وحدك مجمرة نار في صـدرك، لا تشـتعل إلا كلما وقفت أمام هذه الخبيئة التي أخفيتها عن أعز الناس عليك، وتشـممت رائحة أوراقها القديمة؛ كأنك تلمس جروح أصحابها!

هكذا صار موريس يكلم نفسه كلما جلس أمام الكاهن ليعترف له، ربما أزاح عن صدره بعضا من هذه الجمرات التي جعلت سعاله لا ينقطع ليل نهار، يسر دوما كأنه غريب عن هذه البلدة، لولا أن قدميه مازالتا تحفظان الدروب و الحارات، وأنفه فقط هو من يقوده إلى هذا البيت أو ذاك، رائحة الكمون تخبره أنه وصل إلى بيت الحاج عثمان الله يرحمه.

أيقظه صوت الكاهن: خير يا موريس أفندي، ربنا يباركك، أخبارك ايه؟!

ـ اللي ها أقوله انت عارفه كله يا قدس أبونا، وتاه مرة أخرى..

(٨)

ابني الحبيب وديع:

ببركة أم النور، وقوة الشـــهيد مار جرجس مازلت قادرًا على الحياة، وخصوصاً بعد وفاة أمك، لا داعي لتذكرها الآن، ربنا قوي ..

أرسـلت لك يا وديع يا ولدي مع عمك مصـطفى وهو راجع من الغيط قلت له : إن كنت ها تعدي من شـارع الكنيسـة القبطية يا أبو خيري يا ريت تقول لوديع إن أنا مشتاق ليه، قل له يُطلّ عليّ ..

ولا أعرف يا ولدي ما الذي جعل الرجل ينزل من على حماره ويقف مبهوتـاً وهو يتمتم : لا إلـه إلا الله، لا حول ولا قوة إلا بـالله، عليـه العوض وطبطب عليَّ: يا عم عقل صـــلي ع النبي ولا مجِّد ســيدك وحياة النبي لتهدأ، اقعد خد ولع السيجارة دي ..

اللي غاظني يا ولدي انه قال لي: حاضر ها ابعته لك تتصور فاكرني جننت، وقعد يبكي جنبي. عملت له الشـاي وواسـيته، وقلت له: يا ابو خيري دي حكمة ربنا ، أنا ما قصـرتش في حاجة، كنت بحرم نفســي من كل شـــيء وأخليها لهم، لما كانت بتطلب حاجات الحريم كنت باروح البندر مشـــي على رجليَّ وأجيب لها أغلى حاجة، وبعدين ما تعجبهاش، وتروح باعته أختك الصـــغيرة هناء للحاج عبد العاطي من

ورايا، وآخر النهار كان الحاج يبعت بنته زينب بالحاجات، أبص فيها ألاقيها من الرخيص، أطلع على الباب وأقول حكمتك يا رب..

يا ابو خيري أنا عملت اللي يخلصـــني من ربنا وعلشـــان كده ربنا مش حا يفوتني..

المهم يا ولدي قام عمك مصـــطفى وابتدا صـــوته يعلا، وهو يقول، لا حول ولا قوة إلا بالله..

علشـان كده يا وديع يا ريت يا بني تبص عليَّ مش علشـان أنا محتاج حاجة ولا محتاجة، علشـان بس الناس ما تنسـاش إنكم كنتم أولادي في يوم من الأيام وســـلم لي على أختك هناء وأخوك حلمي قصـــدي عبد الحكيم وقول له صورتك لسه قاعدة زي ما هي في البرواز وانت لابس تونية الشماس والأنبا بيمن الرب ينيّح روحه الطاهرة بيرسمك شماس، وأنت برضه يا وديع لسه القربان الحمل المحطوطة جوه قربانة للسعف بتاع حد الســعف وانت في الإعدادية لســه قاعدة برضـــه معلقها فوق الســرير جنب صــورة البابا كيرلس بركة صــلاته الطاهرة تكون معاك ومع أخواتك.

- **<u>ملحوظة:</u>**

باعتبارك يا بني بتقرا وتكتب أكثر منه ، والرب أعطاك لسانا ناطقا – سقت عليك أم المخلص يا شيخ تقول للناس اللي انت معاهم أن المدرسة دي بتاعة الكل، ويا ريت الميكرفون اللي حاطينه على النخلة الموجهة لغرفة نومي يوطوا صوته شوية لأنه بيفزعني من النوم ، ما انت عارف إن أنا بنام متأخر يعني كده على وِشْ الصبح ، طول الليل سهران اكتب لكم في الجوابات دي، وزي ما انت عارف أبوك يا وديع أنا باقبل كل حاجة ومش ضد أي حاجة، لكن إيه اللي خلاني أقول لك كده، إيه، آه، افتكرت، من يومين تلاته جات لي سامية بنت خالتك وهي بتبكي:

طردوني يا عمي من الفصل وخلوني واقفة ورافعة ايديا في حوش المدرسة لغاية الفسحة، والإنجيل يا عمي من الحصة الأولى بتاعة الأستاذ مرسي بتاع العربي لغاية الفسحة، طلب مني اسمع سورة الفاتحة، آه يا عمي نسيت أقول لك قبل ما يطلب مني كده، طلب مني أروح لدورة الميَّهْ وأغسل إيدي ورجلي ووشي، ولما رجعت قال لي كده ، رحت على طول رشمت الصليب وابتديت أسمع :

(بالحقيقة نؤمن بإله واحد الله الآب ضابط الكل ...)

وهنا راح صـارخ فيَّ: ظابط !! ظابط إيه يا بنتي بطلي كُفْرْ، أعوذ بالله من غضـب الله، وراح طاردني ع الحوش لغاية الفسـحة وأنا رافعة ايديا كده ..

أللا قل لي يـا عمي عقل هو " قـانون الإيمـان " اللي حفظوه لنـا في مدارس الحد ما بنحفظهوش ليه ونسمعه في المدرسة ؟

قلت لها : يا بنتي انت غلطانة، النص اللي طلبه منك المدرس ده مش مقرر عليكم في مـادة العربي، قـالـت لي: لا يـا عمي الحـاجـات دي موجودة في كتاب النصـــوص بس وبعدين دي كانت حصـــة دين، وأنا لوحدي، ما فيش مدرس ها ييجي مخصـوص علشـان يدرس لي حصـة دين مسيحي لوحدي ..

علشان كده يا وديع يا بني يا ريت تقول لهم– وانت عارف– إن الحكاية مش كِده خالص ..

أبوك

عقل

أمي الغالية :

باسم الله وبحمده وبذكر محكم آياته ونطقه وبعد الصلاة على أشرف خلقه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهدانا إلى الجنة بالسير في طرقه .

وبعد،،،

أرسل لك الجواب ده مع أبو محسن عمي عبده الخفير، وحياتك يا أمي كتبته زي ما انت شايفه كده بأعواد الحطب اللي بنتدفى عليها أنا والإخوة وسط عيدان القصب من ساعة ما طاردونا الكفار وعساكرهم وإحنا بنتنقل من غيط قصب لغيط قصب تاني، اسمعي يا مّه: امبارح بس أعطاني أحد الإخوة القادمين من الجبل الشرقي كتاب صغير اسمه " الولاء والبراء " يعني نوالي مين ونتبرأ من مين، المهم يا أمي أنا زعلان منك جداً سمعت امبارح من واحد من الإخوة اللي بيجيبوا لنا الأكل انك خبزتي وساعدت الكفرة جيراننا (بيت ادوار) في الخبيز، يا مه ده حرام، ومش أنا اللي باقول ده، ده كلام الأمير يا مه وكمان قالي لي إن ده مش كلامه هوه بس ده كلام ربنا اللي بيقول في كتابه العزيز: ما معناه " ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم " صدق الله العظيم، والنبي يا مه ما تغضبيش ربنا عليك، وسامحيني المهم تقولي لأخويا صلاح يعمل اللي قلت له عليه، المحزم الصوف

اللي بيتغطى بيه الكافر عقل يســـحبه من عليه ويبعته لي مع أبو محسن، وأنا ها ابعت له الفلوس علشان يكمل الدور الرابع في البيت ..

دعواتك يا مه وسلم لي على حسنية وقولي لها خلي جوزك يبطل الكلام اللي بيقولوا علي وعلى الإخوة ده، وإنشـــاء الله المولى عز وجل ها ينصرنا على القوم الظالمين .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(ابو حميد البدرماني)

(.....)

صباح الخير

تعرفين يا عايدة إنني أكون أكثر حرية على الورق، فهذا البياض الفسيح يغريني دائما بتلويثه، عانيت كثيرا من قبل، وعانت أمي معي من ملابسي الداخلية البيضاء، لا أخلعها إلا إذا اقترب لونها من اللون الترابي حاولت كثيراً أن أغسل "كاوتش باتا " الأبيض ذي التسعة والتسعين قرشا مرتين في الأسبوع، ولكنه من الأسبوع الأول يتحول إلى لون لا أعرف كيف أصفه لك – المهم ستتهمينني بالجبن وأنا لن أعتبر ذلك اتهاماً، وإلا لماذا أسمي الذين يذهبون إلى الحلاق لحلق ذقونهم كلما كانوا بصدد موعد مهم، أو بماذا أُسمي تلك اللغة التي تتحدث بها المذيعة منى في (حوار صريح جدا)؟ ستقولين لكل مقام مقال، أو هكذا سيعلق من يقرأ ما أكتبه من أساتذتنا في النفاق والذين يسمونهم علماء اللغة وفقهاء الأسلوب ومعهم أيضا أدباء الصحافة والتليفزيون، الحق يا عايدة أنا لا أجد مبررًا في تلك اللغة المنسحقة أمام كمال الشاذلي، وأظنه إنه كان سيتقبل حتى مداعباتها السخيفة، طالما أن الأمر متفق عليه منذ البدء في برنامج يقال أن هدفه هو المكاشفة لا المجاملة والانسحاق، أظن من حق كامل أو حميدة أن يقيم كلاهما قضية تعويض ورد شرف، أو ربما تنال مُنى جائزة أي منظمة عالمية مقرها بولاق الدكرور في الجرأة والاستخفاف.

أختي وحبيبتي:

بالأمس كنا نسير أنا و مكاوي سعيد في شارع القصر العيني باتجاه بيتهم في جاردن سيتي، ولمحنا على جانب الطريق ورقة نقدية فئة٢٠ جنيها، وكلانا ينتظر الآخر كي ينحني و يلتقطها، ونقتسمها سويا وكل منا يأخذ عشرة جنيهات، وبالرغم أن مكاوي كان هو الأقرب لها، إلا أنه عبرها ومضى، والتقطتها أنا وحين سألته

- ليه يا مكاوي، ما ميلتش وأخدتها انت وسبتها ومشيت؟! ده رزق وجالك!

- يا عم انت أهبل ولا عبيط رزق إيه، الحكاية إن أنا لو أخدت دي أو حتى لو كانت ١٠٠ أو ١٠٠٠ جنيه ها توقّف الرزق الكبير المنذور لي، بداخلي هاتف دائما يقول لي سأجد مائتي ألف دولار، دولار فاهم يعني، كذا، وكذا مليون جنيه.

وجلسنا على قهوة الكراسي البيضاء وشربنا الشاى و القهوة و المعسل على حساب واحد ربما يكون غلبان، هو اللي وقعت منه العشرين جنيه، دي ربك يسامحنا بقى.

المهم انت وحشتيني.. أتمنى رؤيتك

حاولي إيقاظي الساعة ١٠ صباحا

عقل

فيما تبقى من فراغ الورقة، كتبت عايدة:

مساء الخير ..

عقل يا حبيبي حاولت إيقاظك ولكنك غمغمت غاضـباً بكلام لم أفهمه ، فيه عندك جُلاَّش ورُزْ بلبن في التلاجة إبقى سخَّنْ وكُلْ بالهنا والشفا...

حاول تزورنا مرة كلنا مشتاقين عليك

عايدة

(٩)

ورقة أولى :

بقليل من الكراهية

نستطيع أن نحب بعضنا أكثر.

إذ سيكون بإمكاننا أن تكتشف

سوءات المحبة

التي نتواطأ في مواراتها !

ورقة ثانية:

كان صراخنا يكفي

لتنهمر الموسيقى من الأواني

لذا ملأناها بسعالنا

وضربنا على أمعائنا المشدودة

بين رجال الدين

وبين ممثلين هزليين

تلذذنا كثيراً في طاعة أوامرهم

فصدحت الأغاني

تندد بتجاوزاتنا

واعتبر جباةُ الضرائب

صراخنا نشاطاً تجارياً ..

ورقة ثالثة :

إهداء إلى علي الحجار

صوتك في الضلمة طريق

والنور الهادي لمن تاه

بيرش على الكون العنبر

من ريحة العطر باقول الله

الله الله الله

ورقة رابعة :

لا أحب إسرائيل

ولا شعبان ..

ولا العرب القدامى

ولا المقوقس

ولا أهل مصر

الذين اعتبروا الاحتلال فتحاً

أيضاً يحيرني إله العهد القديم

في تعصبه ضد المصريين

وتحيزه للبدو وأبناء يعقوب ..

هل هو فعلاً إله عهد ؟!

ورقة خامسة

بعد سبتمبر

الآن ..

ورغماً عن مناضلي المقاهي

سأعلن إشفاقي على السادات

ولن ألومه على غفلته

فالثعبان الذي أطلقه

على خصومه

عاد ولدغه بعد سبتمبر

سألوم فقط رغم حزني

أمريكا والهايد بارك

وجمعيات حقوق الإنسان

الذين لم يستوعبوا

حادث المنصة ..

ورقة سادسة

إلى الأخ ماجد بشري في المهجر

" هِيَّ دي مصـــر، تخيل يا ماجد بالأمس بكيت، حقيقةً بكيت؛ وأنا أردد هذه الجملة، وارتعب جسـدي كلما نطقت هذا الاسـم؛ مصـر يا ماجد، وحياة البابا كيرلس اللي انت بتحبه حقيقي أنا مش با بعت لك صـــورة فوتوغرافية (كنيســة بجوار مســجد) أو بابعت لك مجلة أو جريدة فيها صـورة لشـيخ وقسـيس رافعين ايديهم لفوق وهي متشـابكة، بس بيبقى ناقصـــها تعليق لأحمد رجب وتبقى المســخرة كِمْلِتْ، لكن اللي با حكيه لك ده حقيق مشـــاعر من دم ولحم كنت في ميكروباص من القاهرة لملوي، والدنيا صـيام، ما أنت عارف، رمضـان، بصـراحة كنت زهقان جدا، ونفســي أموت وأولع ســيجارة، مر الوقت زي ســجن، انت فاهم طبعاً، وعند قرية " المناهرة " عند مطاي كده، ابتدأ صـــوت آذان المغرب.. فرحت جداً ولا فرحة الصـــايمين، ورحت مولع ســيجارة، وأنا باولع، لقيت الميكروباص وقف فجأة أو بصـــحيح العبارة وقفته الناس اللي اتلمت قدامه وهمه شـــايلين أطباق الخوص وعليها ســاندوتشـــات وعيال صـــغيرة معاهم ترامس شـــاي، وقعدوا يوزعوا على الركاب، جه عندي، فقلت له أنا أكلت، مش ممكن لازم تفطر يا أســـتاذ، يا عمي والله، بصراحة، أنا مسيحي، قال ولو لازم تاكل معنا اعتبره عَشَا، وحياة أبونا عبْ مســـيح لازم تاكل، ابتســـمت في قلبي وارتعد كل جســـدي

واغرورقت عيناي بالدموع، تخيل عرفت منه إن دي قرية المناهرة اللي فيها كنيســـة أبونا عبد المســـيح اللي حكى لنا إكرام عنه وعن بركاته كتير، حقيقي يا ماجد يمكن فيه في أوقات تانية حاجات تغيظ بس اللي حصل ده شيء حقيقي ونابع من القلب ، والأمل في اللي جاي، سيبدأ التنوير من برامج التليفزيون والإذاعة ومادة التاريخ والنصـــوص الأدبية في إعدادي وثانوي .

على مظروف أبيض جمعت فيه عايدة هذه الورقات السبع)،
كتبت :
حبيبي عقل:

لا أعرف لماذا تكتب هذه الأشياء المؤثرة وتناسها لقد وجدت كل ورقة من قلب كتاب مختلف، هكذا انت تكتب بدايات الأشـــياء وتتركها ولا تعود إليها، أذكرك أيضاً أن الحقيبة التي فوق دولابنا مليئة بأوراق كثيرة، حاول تفرزها ..

لا تعلم يا عقل بقدر سعادتي بهذه الأوراق إذ أنها صوتك الذي أسمعه، والحوار الذي أشـــتاق إليه، إلا أنني خائفة جدا وما تراه حريتك على الورق الأبيض، أخاف أن تصـــبح – لا قدر الله – في يوم ما ســـجنا، تذكر يا عقلي إنني معك في نفس المركب، حقيقي أنا لا أراك كثيراً ، ولكن مجرد إحساسي بوجودك يكفيني، ربنا يخليك لي .

مع تحياتي.. عايدة

- وثائق وجدت في صـــندوق خشـــبي داخل بيت عقل متى المصري

- بعضـــها على ورق تلغراف وثانية كتابة خط يد والأخرى قصاصات ورق جرايد

صورة من تلغراف

السيد رئيس الجمهورية:

بســم مصــر، وبكل الأشــياء الجميلة فيها، وبعيداً عن أي شــيء أنا الطالب وديع عقل متى مصري الجنسية والروح والنشأة وقد حصلت هذا العام على شــهادة الثانوية العامة علمي (رياضــيات) للمرة الرابعة وفي المرات الأربع حصلت على النسب الآتية : عام ١٩٧٥ (٩٤%)، عام ١٩٧٨(٥ر٩٦%) ، عام ١٩٨١ (٨ر٩٣%) عام ٨٣ (٩٧%)، ومنذ عام ٧٨ وأنا أتقدم لدخول كلية الشــرطة وفي كل مرة أجتاز جميع الاختبارات البدنية وكشــف الهيئة بنجاح إذ أنني حائز على بطولات في المصارعة وألعاب القوى، وللأسف لا يقبلونني ..

أناشدكم باسم مصر أن تتدخل سيادتكم حفاظا على مستقبلي .

ابنكم الطالب

وديع عقل متى

المنيا – ملوي – قلندول

جامعة الإمام ..

الابن الصديق / الدكتور محمد مدني

تحياتي وأشواقي

أعلم يـا محمـد أن كثيرين من الإخوة في الجـامعـة أو نـادي الأدب سـيقولون أن " عليًّا " (تسـعْوَد) إذ أنهم لم يتعودوا أن أظل هنا طوال عامين كاملين، أخبرك يا محمد "إنني لم أبق هنا راغباً، وأيضـاً لسـت مرغماً؛ ولكني في سبيل إنهاء موضوع ما، وسأعود إلى مصر نهائياً، لقد تغاضيت كثيراً عما يطلبونه مني كمسلم كنت مرة أختفي من أعينهم ومرات أواجـه، حتى تـأزمـت الأمور كثيراً، ولكن مـا جعل قدرتي على الاحتمال تنفد ما حدث منذ عام أو يزيد، إذ طالبوني بالشـهادة ضـد مواطن مصـري، جاري بالمسـكن، وأنا أعلم تمام العلم براءته من كل ما وُجّه إليه من تهم، إنهم لا يعترضون على عدم الشهادة، ولكن ما جعلهم يثورون هو شـهادتي لصـالحه، أو على الأدق لصـالح الحقيقية ، أتدري يا محمد مـاذا كـان ردهم عليه بـالإضـافة للتأنيب، والتوبيخ والتلويح بحرمـاني من جنتهم البائسـة، قال كبيرهم، وكأنه ينفث سـموما في وجهي: هل تشـهد مع نصـراني ضـد واحد من إخوتك، ألم تسـمع يا دكتور انصـر أخاك ظالماً أو مظلوماً، ولما حاولت تفسـير هذا الحديث بما يتلاءم والحس الإنسـاني ... لم يسـتمع لي أحد . لن أطيل عليك يا محمد، تحياتي للجميع ..

سأعود في سبتمبر المقبل

المخلص دوماً

علي البطل

وكأن هذه الرسالة كانت تعزية ما، وبدون تخطيط لأي شيء أرسلها الدكتور محمد مدني إلى موريس، كاتب رسائل عقل القبطي، في مظروف كتب فوقه؛ هذا الخطاب أبعثه لك يا أخ موريس يا ابن خالتي القبطي، وأرجو ان تقرأه لعمك "عقل" ربما يعرف أولادنا يومًا كيف عشنا ومن نكون..

محمد مدني

السيد رئيس الجمهورية:

بعد التحية،،،

مقدمه لسيادتكم المواطن المصري "صفوت لبيب المصري" حيث إنني أفنيت عمري في خدمة القوات المسلحة بدءًا من عام ١٩٥٤ حتى تاريخه ووصلت إلى رتبة عقيد منذ أكثر من عشرين عاما وللآن لم يتم ترقيتي لما بعدها علما بأن زملائي وصلوا إلى رتبة اللواء وبعضهم إلى فريق، وأحيط سيادتكم علما أنه لم يتم توجيه حتى اللون أو لفت نظر في ملفي وخدمت في كل الحروب وشهادة زملائي بإمكانياتي وقدراتي العسكرية والعلمية، التي أحمد الله أنها تؤهلني كي أقدم لوطني الكثير في مواقع متنوعة، ومع هذا يتم إغفال اسمي دائماً رغم إنني حصلت على حسابي الخاص على درجة الدكتوراه في الاقتصاد السياسيٍ، والماجستير في العلاقات الدولية وكذلك هندسة الالكترونات ، واستعد لمناقشة الماجستير في موضوعة تختص بالحروب البيولوجية، وهم يحاولون الآن إحالتي للتقاعد .

ولا أدري سببا لذلك رغم إنني لم أتجاوز ٤٧ عاما .

برجاء تكرم سيادتكم والنظر في أمري .

مقدمه لسيادتكم

عقيد (في سبيله للتقاعد)

صفوت لبيب المصري

إدارة الإمداد والتموين

مكتب مسئول الديوان العام

صاحب القداسة بابا الكنيسة الأرثوذكسية

لن يجادل أحد في وطنيتكم ، وأنت تعلم قبل غيرك أن مصـــر للجميع أليس أنت القائل (إن مصر ليس وطنا نعيش فيه فحسب بل هي وطن يعيش فينا ..)

لم يزعجني كم الرسـائل التي وصـلتني من شـباب مسـيحيين من أبنائك بقدر ما أزعجتني محتوياتها إذ أن معظمهم يذكرون أنهم يمارســـون الرياضات العنيفة كالمصارعة والكونغ فو والملاكمة، وغير ذلك .

برجـاء تـدارك الأمر قبـل أن تتـأزم المســـألـة وتوجيههم إلى النواحي الروحية، حيث أن هذه الأنواع من الرياضـــيات مصـــدر خطر علينا جميعا .

والسلام على من اتبع الهدى

المسئول

عنه

عمر بن سلطان الصدفي

هامش

قيل أن أحد أقارب عقل متى، وجدها مصـــادفة في صـــندوق قمامة، حين كان يعمل في السفارة الأمريكية كعامل نظافة..

أما هذه الرسـالة التي وجدوها عائمة في النيل على صـليب من خشـب الأبلكاش، وكلما نزل إليها أحدهم، كانت تختفي في الماء، ولم يمســـك بها، سوى حكيم بن سيسيل الأعمى الذي كان يقيم أمام باب الكنيسـة، وهو يتحمم ليلة عيد الغطاس.
السيد رئيس الجمهورية
السيد رئيس الوزراء
السيد وزير الداخلية

وقبل كل هؤلاء إلى الســـيد الأوحد : إله الكون ســـيد الأســـياد ورب الأرباب.

" ها أنا ذا أمر بطول الوادي ، وأرى كل شـــيء، أســـمع أنات الفقراء والمعوزين ، أحس بكاء الأجراس القليلة التي تبقت، وســـأكون شـــاهد عدل، حينما ينكر اللصـوص الذين سـرقوا الأسـمنت والطوب الذي تم إحضـاره لترميم كنيسـة هنا أو هناك، كذلك سـأجعل الأقلام التي خطت القرارات التي تعيق البناء أو الترميم شـاهدة على جميعكم فيما بعد ... "
تقول الرسالة الغير مكتوبة

أما ما كتب فهذا نصه:

نحن أهالي " أنصنا " مسيحيين ومسلمين نناشدكم التدخل لإنقاذ الوطن من كارثة، فقد قام القمص شنودة من مطرانية ملوي بالتعاون مع البيوت المسيحية في البلدة بشراء قطعة أرض من أملاك بشرى عبد المسيح لبناء كنيسة عليها، وفي الليل جاء مسلمو البلدة والبلاد المجاورة، وفي أقل من ساعتين بنوا سورًا بالطين حول الأرض وفرشوها بالحصير العبداني، ولما حل وقت الفجر أذنوا فيها وأقاموا الصلاة ..

وتم إبلاغ البوليس الذي قرر " يبقى الوضع كما هو عليه ":

وقال رئيس القوة: إن غضب الله لشديد على من يقترب أو يمس المساجد بسوء.... ومرة ثانية تم فيها ما حدث في الأولى والثالثة كذلك، حتى العاشرة.

حتى المرة الرابعة عشرة، بالضبط ما حدث في المرات السابقة وأضيف التهديد وقيام البوليس بواجبه بأخذ تعهدات على أصحاب الأرض بعدم التعرض..... علما بأن القرية بها أكثر من ثلاثة مساجد بالإضافة للزوايا الصغيرة على الترعة الإبراهيمية من قبل ذلك ..

ولما لم نجد بدا اتفقنا على تحويل بيت أحد الأهالي وهو (بيت المقدس فرنسيس حنا مقار) إلى كنيسة مع بعض التعديلات نناشدكم الترخيص لنا لإقامة الصلاة أسوة بالتسهيلات وعدم الاعتراض على بناء وترخيص الملاهي الليلية والكافيتريات والكوفي شوب وأندية الفيديو ...

أهالي أنصنا

توقيعات

تقول الرسالة في غير ما هو مكتوب (وقد أيد ذلك البابا شنودة في حوار له مع عماد الدين أديب على قناة أوربت):

" الغريب أن الأهالي لما احتاروا في تسمية الكنيسة أطلقوا عليها اسم : كنيسة الـ ١٤ جامع"

وزارة الداخلية

إقرار وتعهد

أمامنا نحن محمد أحمد الحجي مأمور قسم مركز ملوي تم أخذ التعهد والإقرار بذلك على المدعو عقل متى مينا بأنه لن يتعرض سواء بالضرر أو النفع للسيدة هناء عقل متى التي اختارت طريق الإيمان بعد الشرق واعتنقت دين الله الحنيف (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه) وتسمت بعد ذلك بالسيدة فاطمة المهدية عبد العقل وذلك برضاها ورغبتها وقد تزوجت من أحد أفاضل الإخوة في الله وهو السيد عبد الله بن عبد الحفيظ (أكثر الله من أمثاله) لما بذله معها في تعريفها بدين الله الحق، ولعل الجنة من رب العالمين هي مكافأة لأمثاله يسيره .

لذلك فقد أخذ على المدعو "عقل مراد متى مينا" هذا التعهد بأنه لا يحق له المطالبة فيها بنسب أو أبوه طالما هو هكذا بعيدا عن الدين الحق.

وقد قُرِأ عليه ذلك وهو في كامل قواه العقلية .

الشهود

شاهد أول	شاهد ثان
ملازم محمد حسين الصياد	مساعد شرطة حمدي سلمان محمد

(١٠)

عزيزتي عايدة..

أكتب إليك الآن وأنا تحت " تمثال الحرية "، لو تتذكرين يا عايدة ذلك الحلم الذي كنت أحكي لك عنه مرات كثيرة قبل سفري، آه يا عايدة منذ أن جئت إلى هنا وأنا كل يوم أتأكد من مقولتك التي كنت تردين علي بها حين كنا نتناقش حول أمريكا وسياستها في المنطقة حقيقة يا صديقتي هناك فارق شاسع بين الخطاب السياسي للإدارة نفسها وبين الشارع الأمريكي هنا، فالبشر هم هم البشر في كل مكان وزمان، حقيقي إننا يجب أن لا نخلط، فالحكومات هي الحكومات، ومنذ متى كنا نحن نرضى عن سياسات حكوماتنا داخليا أو خارجيا، على الأقل هنا، صوت المواطن بما أنه مواطن فقط مسموع ليس لأية اعتبارات سوى باعتبار أن الحكومة هي البائع والمواطن هو الزبون وهو دائما على حق لأن صوته لا يحمل سوى الصالح العام .

ستقولين وسيقول بعض الرفاق والرفيقات من ٨ يناير أو العمال إنني تغيرت بدرجة ١٨٠° ... أوه يا عايدة، لقد قتلتنا التنظيرات والإعلام المضلل، أعترف لك أن مساحة الرؤيا اتسعت لما أراه هنا، فكل الألوان والأجناس والديانات، كله كله، في سيستم (نظام) واحد اسمه القانون

فوق الجميع، كل الناس تأخذ حقوقها وبالتالي لا يتأخر أحد في أداء واجبه، أظنها معادلة بسيطة جداً ..

على الأقل هنا يا عايدة تستطيعين التنفس، فالإعلام هنا رغم ما يقال عندنا وفي الشرق عموماً أنه تسيطر عليه الأقلام اليهودية إلا أنه إعلام صريح، ولم أر ولو لمرة واحدة صورة الرئيس أو قرينته تتصدر نشرات الأخبار أو صدر الصحف والمجلات، نادرا ما يحدث ذلك وفي أضيق الحدود، هنا تستطيعين الاختلاف ولكن بدون تجريح ..

لقد استضافتني إحدى القنوات للحديث عن مشكلة الإرهاب في مصر والشرق الأوسط فتحدثت بكل صدق وأمانة وقلت أن الحكومة تحاول جاهدة للقضاء على الإرهاب، ثم قلت لهم أن الإرهاب الدولي هو أساس هذا الإرهاب أو هذه الظواهر الجماعية أو الفردية داخل المجتمعات، فما تمارسه إسرائيل الآن ضد شعب أعزل بماذا أسميه؟! ما يمارس ضد أطفال العراق هل له اسم آخر سوى الإرهاب؟، فماذا تنتظرون من مجتمعات هذا هو حالها ؟!

وفي الاستراحة، أثناء التسجيل، عرض معد ومذيع البرنامج أمامي لقطات تسجيلية لحوادث اعتداءات في كفور ونجوع من مصر لم أكن اسمع عنها قبل ذلك، وما أزعجني هو مساعدة رجال الحكومة للإرهابيين في اعتداءاتهم أو في لقطات أخرى كانوا يفرّون – متعمدين– بعيداً عن مواجهة المعتدين!

بعد ذلك لم أستطع مواصلة الحديث واعتذرت لهم والدهشة تكاد تقتلني!

خرجت من المبنى واتجهت حيث أركن سيارتي فإذا بي بشخص تتم ملامحه عن أنه آسيوي، اقترب مني حياني قائلاً: السلام عليكم بلكنة خليجية، رددت السلام، أعطاني "ماكيت" من الكارتون للمسجد الأقصى كتبت تحته هذه العبارة: (سبحان من سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا لربنا لمنقلبون)، وأردف يقول رددي هذا عند ركوب أي شيء وأمرني بأن أعلقه في سيارتي وأن اتلوها كلما ركبت السيارة أو صعدت بالأسانسير، قائلاً هذا دعاء ، وأعطاني كتيباً آخر كتب على غلافه الأخير اسمه وتليفونه وطلب من قراءته والاتصال بهذا الرقم وسوف ترد علي إحدى الأخوات، وعلبة ثالثة بها (استيكرات) طلب مني لصق أكبر عدد منها في أماكن مختلفة منها (الحجاب قبل الحساب و(الإسلام هو الحل)، و (النقاب وإلا العقاب)..

مرت الآن خمسة أعوام

سرحت للحظات يا عايدة، مستعيدة ما كنت أراه كحلم يراودني أثناء سنوات خروجنا في المظاهرات والتجمعات الطلابية، حيث أراد صدام حسين دخول الكويت ساعتها وقلت للرفاق إنني لا أتعاطف مع الكويت ولا مع صدام أيضا، فلو كان جادا فيما يبثه جهازه الإعلامي من خطب له، لاتجه مباشرة إلى إسرائيل أو ضرب المصالح الأمريكية هنا أو هناك، ولكنه وقع في شرك لن يخرج منه، ليس ما يعنيني هو صدام

(عنه ما خرج) بل ما يعنيني شعب العراق؛ فهم يعانون الجوع والحرمان من ممارسات ديكتاتورية الأنظمة مثلنا وقد دفعوا ثمنا غاليا من قبل في النضال ضد الامبريالية وضد الأصوليين الجدد في إيران، ساعتها كنت أفكر كما تفكر الإدارة الأمريكية الآن، لم أكن وحدي بل كان سائر الرفاق الشيوعيين يرون في الأصوليات الدينية وجماعاتها الإرهابية خطرا أشد من خطر الإمبريالية الغربية، وقد تحدثت مع كثيرين من الأصدقاء وقلت لو أن هذه القوى والأسلحة والأموال التي تنفقها الجماعات الأصولية على قتل إخوتهم من أبناء الشعب؛ لو كنتم توجهونها صوب الصهاينة في إسرائيل لكنت أول المؤيدين لهم..

وها أنا، كما أنا، وكأن السنوات التي مرت لم تمر، كل شيء كما هو الأصوليات تزداد تواجدا وقوة بمباركة عدوها التقليدي في الظاهر وحليفها الاستراتيجي المتمثل في جماعة المصالح الغربية، كل الغرب، هنا فقط يا عايدة عرفت وتأكدت أنه ليست هناك حروبا دينية بالمعنى الصحيح، الدين هو الراية التي يرفعها بعضهم سواء عندنا أو عندهم هنا في الغرب، تماما تظل مقولة ماركس متمتعة بكامل صحتها " الاقتصاد هو محرك التاريخ "، وما حدث في الخليج منذ أربعة أعوام خير دليل على ما أقوله لك وحكيناه مراراً، ما الذي يجعل أمريكا والغرب يتحركون وبسرعة للدفاع عن هذه البلاد الخليجية، هل فعلاً كان بوش في حفر الباطن يحمي الكعبة؟!، أظن، ولعلي متأكدة أن كعبتهم الحقيقية هي مجموعة حقول البترول

وفي الصـــومال والســـودان وغيرها وغيرها، لماذا لا يتحركون هكذا جميعهم منذ خمسين عاما تجاه قضية فلسطين؟!

لا أدري، هل سـأظل هكذا، كثيرة الكلام، ثرثارة، إنني مشـفقة عليك من احتمالك لي

أخيرا وأولا، أشتاق إليك كثيرا، وإلى كل الإخوة .

تحياتي للجميع، أرجوك اكتبي لي باستمرار .

أحلام محمود

١٩٩٥/٧/٢٤

الحبيبة: أحلام

حتى الكلام أصـبح ترفا بالنسـبة لي سـواء قلته أو سـمعته فلم أعد كما كنت أنفعل بما أســمع أو أقول، الأمر لا يعدو مجرد كونه اســتهلاك للوقت، أو هو بالأحرى عادة مثل التدخين، ســنوات ونحن نتكلم ماذا فعلنا، وماذا حدث ، لقد حولوا هدف الكلام من الرغبة في التغيير إلى مجرد التنفيس، كل في ذاته وبذلك صــارت المؤســسـة تفعل ما تريد،

ونحن أيضـاً مسـموح لنا أن نقول ما نشـاء، جعلوها أزمة فردية، مجرد أزمة فضفضة !.

أحلام.. هل سـنظل هكذا، لقد سـئمت ذلك الخطاب الدائري، أي كما يقول إخوتنا السودانيون " الكلام الساكت" فنحن نكتب الشعر والقصص والمقالات ونقرأها لأنفسـنا، أشـياء لا تبرح دائرتنا، فماذا سـنفعل ؟ تجاه مؤسسة كل مواد جهازها الإعلامي من صحافة وإذاعة وتليفزيون ترسخ للتخلف ولا تأخذ من مظاهر التقدم سـوى القشـور المتمثلة في النمط الاسـتهلاكي بإعلانات البسـكويت والشـيكولاته وزيت عباد الشـمس . وصـحف اليوم هي هي الصـحف منذ عشـرين عاما وهل الرئيس، ذهب الرئيس

اقتصـادنا بخير، ولا أدري على من تعود هذه الـ (نا) الملحقة بكلمة اقتصـاد إذا كان لدينا اقتصـاد من أصـله، هي هي عائدة على بضـعة أفراد في المؤسسة فقط ؟!

بالأمس ذهبت أنا وعقل إلى منطقة من آلاف المناطق العشـوائية بجوار مصـر الجديدة تسـمى " أبو رجيلة "، كل عشـرة أفراد في غرفة واحدة، تخيلي، جميعهم بعض الأطفال الصـغار حكوا لي عن يوم الخميس الذي كان قبل ذلك بيومين وكأنه كان يوم العيد، قالت لي طفلة أنا مبسـوطة لأن ماما أول امبارح، جابت لنا لحمة، ولما سـألت الأم عن كمية اللحمة، قالت : يا بنتي أنا باشـتري لهم كل خميس ٢ كيلو (أرجل

دجاج) وأسلقهم وأعمل لهم شربة على شوية ملوخية علشان العيال دي عضمها يتقوى!

وبالأمس أيضا كتب رئيس تحرير صحيفة أن المصريين استهلكوا بما قيمته مليار جنيه خلال شهر رمضان وحده، ولا أدري أي هؤلاء المصريين؟ هل هم يسكنون معنا على نفس الأرض؟! ويأكلون مثلما نأكل، أم كان يتحدث عن المصريين في أوربا وأمريكا؟!

وخرج رئيس الوزراء علينا ببيان الحكومة (والحمد لله اسمه بيان الحكومة، وليس بيان الشعب، لأن كل ما فيه لا علاقة له بالشعب) وقال أن اقتصادنا بخير ولن نحتاج إلى المعونة الأمريكية، فمتوسط دخل الفرد عندنا، هكذا يقول، أعلى من دول غربية كثيرة!

وفي اليوم التالي كان مانشيت الأهرام : " الحكومة الأمريكية توافق على طلب مصر للمساعدات الاقتصادية!

عزيزتي أحلام، ألم أقل لك إنهم يقولون، وتركوا أيضا لنا بحبوحة القول، ولكنهم يفعلون ماهو صالح لهم هم فقط ..

ما الذي سيفعله كلامي أو كلامك تجاه كل ذلك.

حتى بعض الرفاق الذين كانوا في الماضي، عرفوا طريقهم الآن واحتلوا مؤسسات وصحف ومجلات كثيرة، وبنفس الحدة والتطرف تماما كما

كانوا في الماضي، يبررون ويدافعون الآن عن الشيء ونقيضه في وقت واحد.

أختي الحبيبة حمدية عبد اللطيف

لعلك تتذكرين أختك هنـــاء عقل متى، لا أدري يا حمدية كيف أبدأ، ما يشـــجعني إنك أنت الوحيدة التي تتفهمين ما أقوله تخيلي: أصـــدقاؤنا القدامى اتهموني بالتحيز والعنصـــرية لما حاولت مناقشـــة الموضـــوع معهم، بعضـهم قال لي: هي حرة، لن أطيل عليك في ذلك سأحكي لك الحكاية من أولها :

منذ ثلاثة شهور اختفت هناء، بحثنا عنها في كل مكان في المستشفيات وأقسام البوليس وعند الأهل والمعارف والأقارب في محافظات أخرى ولم نعثر لها على أثر..

كان ما يعذبنا هو بكاء طفلتها مريم بنت الـــ ١٠ شـهور وأسئلة ولدها الكبير باسم في الإعدادية والبنت الثانية ماريان في خامسة ابتدائي ... حلف جوزها د . منير على الإنجيل وكل القديسـين إنه لم يغضـبها ولم يحدث بينهمـا أي سوء تفاهم يستحـق طوال عشرة عمر مدتهـا خمسة عشـــرة عامـا للآن، كـاد الرجـل يجن، ووزعنـا أنفســـنـا بطوال ترعـة الإبراهيمية حتى أبو قرقاص لمدة أســـبوع ليل ونهار ولم نعثر لها على أثر، وبعد شـــهر من الاختفاء جاءنا قاســم الخفير وأعطاني ورقة وقال

لي خد دي يا مقدس ولما سـألته قال طلب اسـتدعا للمركز ... قلت له اقرا لي بصـوت عال صـرخ في أذني، رحت اتصـلت على طول بعمي عقل وبباقي العيلة، ورحنا ع المركز، وهناك شفناها ..

أقصد رأينا خيال أسود في أسود حاجـــة كده زي الخيمة السوداء وقالوا لنا دي هي، ولما سـألنا إيه اللي حصـل، قالوا لنا الموضـوع خلص.. أبوها فين، تعالي، ودخلوا عمك عقل جوه في غرفة ضـــلمة وبعدين طلعوه مش قـادر ينطق ودخلوه تـاني على غرفـة البيـه المـأمور ... وطلعنا بعديها بره القسم وكلنا صامتين لم ينطق أحد بكلمـــة ... خارج القسم انهـار عمك عقل وبكى، بنتي ماتت الحكومة عايزة كده خلوني بصمت على تعهد وإقرار، الحكومة بتساعدهم، ربنا قوي، ربنا قوي ..

وبعديها بشـــهر ونصـــف كده قابلتها نوال متى في ملوي طبعا نوال ما عرفتهاش هي اللي شـــافت نوال وندهت عليها، وخدتها ودخلوا عيادة الدكتور محمد عامر، وجوه قعدت تحكي لها ..

الموضوع ها يطول يا حمديـــة سوف أحكيه لك في الجواب التالي، ها أخلي نوال تحكيه لك في التليفون .

عقل مراد مرقص

ألوه، أبوه،

أيوه يا حمدية أنا نوال باتكلم من مصر ..

إزيك، وازاي أولادك، الحمد لله، آه، يعني، أهو ده اللي حصل، يا ستي والله اللي حصل مش عارفه أفهمه لغاية دلوقت، آه، نشكر ربنا ...

تصوري يا حمدية، إن أمين ابن عمك عبد الباقي اللي هما أصحابنا ومعارفنا من ملوي ..

انت فاكراه، آه، المهم مش هوه بس أخته أمينة اللي كنا كلنا بنعتبرها أختنا، كانت آه، مصاحبة الدكتورة نوال وعزمتها في مرة على حفلة عيد ميلادها ... أهه بتقلد بتوع بره، وقال إيه ... (ده زي ماحكت لي هناء بالظبط لما قابلتني صدفة في ملوي)، سقتها نعناع واتاري فيه حاجة منومة، قامت نعست ولما صبحت الصبح لقت نفسها متلخبطة ومتبهدلة، ربنا يا أختي يستر عليك في غربتك، ولقت بعد كده في وشها أمين أخوه أمين اللي بقى شيخ دلوقت، وقال لها انت بقيتي مراتي على سنة الله ورسوله !!، وراح مطلع لها مظروف مليان صور ليها هي، وهي في أوضع الواحدة تتكسف توصفها، وهددها بيها، راحت من ساعتها هربت معاه، وما ظهروش إلا من شهر كده . وزي ما حكي لك عقل في الجواب ..

ألوه، ألووووه..

أيوه يا أستاذ عقل

أنا ..إنصاف..

الله يسلمك،

لع أنا أما أبتكلم من البلد، الحقنا يا خويا قبضـــوا على محمد وهو راجع من الكنيسة، أيوه محمد أخويا هو إحنا حيلتنا غيره يا نضري ... الحقنا يا أبو باسم، أنا عارفه ياخويا، ربنا يديلك الصحة وينور لك عينيك ..

أيوه، أوه، عشيـــة يا خويا قال إيه مشتبهيـــن فيه يفكروه من الجماعة البعدا، ودي تالت مرة يا خويا شـوف معارفك لحسـن ده عيان ومش ها يسـتحمل يقعد شـهر ولا شـهرين زي كل مرة، ربنا يدومك لينا يا خويا، بالسلامة، بالسلامة ..

(١١)

في كل مرة يقولون له حدد موقفك،

" يا بني كده ها تتمرمط ع ألفاضي، خلَّص "

هكذا شخط فيه الصول حمدي ..

يعني إيه أبقى إرهابي ؟ ! رد محمد لبيب لوقا بفزع.

- إرهابي إيه يا بني.. أنت ها تضمن آخرتك والله أنا خايف عليك ، كفاية عليك ٣٥ سنة مع إخوانا المسيحيين، أي نعم هما ناس كويسين بس يا بني ده بنص القرآن آخرتهم مش حلوه، اضمن آخرتك يا محمد، وعيب لما واحد يبقى اسمه محمد تبقى آخرته وحشةٍ!

- يعني إيه، ، وبعدها تكلم محمد في نفسه (يعني يا ربي، مش عايز تساعدني ده حتى هناك مش حا ألاقي أم المخلص تتشفع لي، ولا فيه حتى شمعاية أولعها قدام أيقونة مار جرجس وأروح مرتاح نفسياً، طلعني يا رب من المطب ده، ليتمجد اسمك القدوس) .

اتجه ناحية الصول حمدي وهمس في وداعةٍ: وحياة ولادك يا شيخ حتى بُص لأمي العجوزة ..

- يا بني هو أنا بإيدي حاجة لما ييجي الباشـا، اصـبر يا محمد وما صبرك إلا بالله ..

- : ونعم بالله يا حضرة الصول!

الأخ شوقي :

أعيش الآن داخـل مـاكيـت كبير، بـالأمس قـال لي محمود ابني: وحشتيني يا ماما، عايز اشوفك!

أمام المرآة قلت: الله يكون في عون الصـــغار فلم ترد عليَّ المرأة التي تواجهني، وهي مكفنة بالســـواد ناديت على روحي بعلو الصـــوت: يا إنصاف ... وحلقت بعيدًا، ودخلت تحت الشال القطيفة الأسود، شال أم عقل ، أمي، دفسـني عقل بقدمه الصـغيرة وهو يصـيح ماما ... مم، مام ، حضـنتني وحضـنت عقل وبكت وهي تقول : " خايفة من بكرة "، أخذت تعدد، دفنت وجهي في الشـال وسـحبت نفسـا عميقا، سـحبتني الرائحـة إلى هنـاك ، غنينـا، ولعبنـا، جرت نوال وراءنـا وهي تتوعـدنـا : سـأقول لأمي على كل شـيء، دخلنا أنا وأنت وعقل وأمين ابن عمي جوه الكنيسـة، عسـعس المعلم أيوب معلم الكنيسـة على رؤوسـنا وسـمانا واحدة وواحد، أعطانا قطع خبز القربان الصـغيرة وشموع صـغيرة ، وقال

لنا : العبوا في الحوش، نادي على أمين، وقال له : أوعى تنسى (وهو يمسكه من أذنه)، تفكر أمك الست الحاجة تبعت القمح بتاع كل سنة..

قالت أمي : أيوه، جمعتين والتالتة هي الجمعة الطويلة، كل سنة وانتو طيبين، شا لله يا أمْ المخلص، شا لله يا أولية الله ..

قالت: يا أمين يا ولدي تشيل زكيبة القمح دي، وتوديها الكنيسة وقول للمعلم أيوب أمي تسلم عليك، وقول له ما ينساش قزازة الزيت البركة من الدير وصورة كبيرة لستِّي العدرا ..

أخويا شوقي ..

دخلت عليك وصحيتك، بعد أن أوصلني أبي بدراجته إلى بيتكم وأوصاني أن لا أتركك حتى تستيقظ، كنت ساعتها تغمغم وانت نائم ، وتهلوس .

(المعلم مش شايف، وعقل كان جوه في غرفة القربان مع أبونا صبري، وقالت سميحة: أنا كنت باعترف يا عيال، والكحلة في عينيها سايحه ومتلخبطة) .

جرينا ورا القسيس وغنينا : (صبري المكحل خد سميحة وبحّر) ..

ورجعت ساعتها من مصر ومعاها أمير الأعرج ابنها وقالت كنت با عالجه في مصر.. وأمير الخالق الناطق هوه هوه القسيس صبري،

(قيل أن صبري " شلحته " الكنيســـة ، فاستأجر شقة في كلوت بيك وعملها كنيسة غريبة، تبع شهود يهوه، حلق ذقنه ولبس البدلة الإفرنجية بدلا من الفرَّاجية السوداء، وكان يسافر إلى هولندا والبرازيل كل سنة، وسميحة بعد ما مات زوجها المقدس شاكر، تزوروه كل عام في كلوت بيك، ولكنها حين تعود، تتفنن وتقول، يا جمالها كنيسة أم المخلص في حلمية الزيتون، يا حلاوتها وهي بتظهر كل ليلة على القبة، سَـــبَع حمامات بيض، ومنورين حواليهم نور أخضر.. يا حلاوتك يا أمْ النور، وبعد أسبوعين، تسافر إلى الأقصر مدد يا سيدي أبو الحجاج، وترجع تقول، والمسيح الحي يا بنات أنا لما سمعت واحد أفندي في الأقصر بيوعظ في الخواجات سحبته من وسطيهم بعينيه، قلت له يا خويا أما مش فاهمة حاجة، قال لي ها أقول لك بالعربي : الحتة اللي قدامك دي زي ما أنت شايفه كده، جامع سيدي أبو الحجاج، تحت منه بالظبط كنيســة، قلت يا ســلام !، وتحت الكنيســة معبد فرعوني قديم، والمولد واللفة بالمحمل دي اللي انت شايفاها كانوا بيعملوها من آلاف السنين، قلت له : وماله، وحياة أم المخلص يا بنات على قد الحكاية ما هي ملخبطاني، لكن أهه قعد يســليني ويفســحني طول أيام المولد، أولاد الخير كتير، واللي يمشي يا ما يشوف ..

أختي وحبيبتي عايدة:

كالعادة وجدتك نائمة، بالرغم إنني رجعت اليوم مبكرًا الســـاعة ٢ر٣٠ صباحا، لازالت كتمة الصدر تهاجمني، والقولون اللعين يربك نفسيتي

اتركيني نائماً، لن أذهب إلى أي مكان غدًا، قصدي اليوم

صـحت من نومها فجرًا، وكما اعتادت أخذت حمامها، وفطرت سـريعا، وتهيأت للنزول إلى عملها، وكتبت رسالة الصباح المعتادة:

- بالأمس رأيت شـيئا ما، كأنه صـنع من أجلك، أتمنى أن نلتقي غدا ونذهب معا لشـــرائه، طبعا لن أفصـــح لك عنه إلا حين نذهب، وإلا فيما ستكون المفاجأة؟!

- الدكتور رفعت السيد علي أقسم لي في التليفون: " والله العظيم وعلي الطلاق، لو أنا عارف إن فيك أي مرض أنا حا أشـيلك على كتفي وألف بيك ع المستشفيات، والنبي يا شيخ تنسى إن فيه طب ودكاترة، وقّر فلوسك شوية!

- صـحا من نومه عصـرًا، ورد على رسـالتها، في قصـاصـة، ووضـــعها على ترابيزة الســـفرة، كما اعتادا، وســـتقرأها حين تستيقظ بينما هو في بدايات نومه صباحًا:

أضـــحكتني والله، بحكاية الدكتور رفعت دي، إني أحب هذا الرجل، كأنني منه وكأنه مني، ولأنه منذ أســـبوع عزمني على طبق كشـــري، وجلســـت أمامه مبهوتا لا أنطق : فقد دلق نصـــف زجاجة الشـــطة السوداني على طبقه، وشرب الباقي، تخيّلي!

لهذا فإنني بقدر إيماني وثقتي في إنسـانيته وطيبته، وأراهن بعمري على ذلك، إلا إنني أشـك في حكاية الطب هذه ومدى إيمانه بها، رغم ذهابي إلى عيادته عشرات المرات بحكم المحبة التي جمعتني به.

(١٢)

رسالة من بيت ساحور

حمدية عبد اللطيف لا تنسى المرأة التي من بيت ساحور، التقتها ذات مرة في إحدى الولايات الأمريكية، قالت: اسمي رنا فلسطينية من بيت ساحور فلسطين، وأنا أبيع ما يصنعه إخوتي وعائلتي وأبنائهم بفلسطين من منحوتات مقدسة للسيد المسيح و السيدة العذراء، ولكل الأطهار ممن دبت أقدامهم على أرض بيت الرب أورشليم، ما أدهش الاثنتين، إن كلتاهما كأنها كانت تنظر في مرآة، وضحكت حمدية كثيراً، حين ذكرت لـ " عقل" حكايتها، ومدى التشابه بينهما، رنا أيضا مثلها تضحك كطفلة، رغم تجاوزها الأربعين من عمرها، تضحك كي لا تضحك، بل لتطمر بركانًا من أحزان، فاجأها عقل، إذ رد عليها قائلاً، الحمد لله إنني صرت كفيفًا يا حمدية، وإلاّ كنت احترت بين قنينتيّ حزن!

كلما نظرت حمدية إلى تمثال للسيدة مريم العذراء، التي أعطتها إياه "رنا" وهو منحوت من خشب شجر الزيتون؛ تتخلص كثيرا من آلام نفسية، أخبرتها أن هذه الأشجار؛ تُنْبتُ تلك الأرض الفلسطينية التي أنجبت الرعاة الذين بشرتهم السماء بميلاد المسيح، حمدية، سواءً في حياة أمها أو بعد وفاتها لم تحب إنسانًا في الكون قدر حبها لاثنين، عقل القبطي و السيدة العذراء، ربما لأنها تشبهها داخلياً، كلتاهما

فوجئت بحمل روحي بأحشـــائها، وإن كانت حمدية لا تســـتطيع وتلك أزمتها الكبرى، أن تفصـــح عن هذا الحمل، فقد مضـــى زمن المعجزات ولم يعد الرب كما كان في القديم يرسـل ملائكةً؛ إن في الصـحو أو في رؤيا المنام، ليرشـد من أثقلهن بهذا الحمل المقدس، كلتاهما حملت جمرة المحبة بأحشـائها، الأولى وهي الصـبية التي لا هم لها سـوى محبة الله، ولكن كما تقول الحكاية، بدعم إلهي، واجهت مملكة بعتادها وقضـــاتها، ولم تحزن كحزن النســاء وهي ترى ثمرة أحشـائها معلقة على الصـليب، حمدية تُصـــلب كل يوم، بل كل لحظة، لأبناء الرب صـــليب واحد، و أنت يا حمدية، تعددت صـــلبانك؛ مابين الاغتراب في بلدها والغربة خـارجهـا، تتمزق في كـل لحظـة تريـد أن تتكلم و"عقـل" كحبيبين، ولم يتمكنا طوال صـباهما أو شـبابهما ولن، إلا في بضـع رسـائل وإيميلات عادة تكون بأسـماء مسـتعارة، لذلك يقولان في نفس واحد: كأنني أحادث شـــخصـــا آخر، أو من خلال زجاج معتم، حكايتهما داخلهما تزهر وتقحل، ولن يزيدها الكلام الخارجي شـيئا، رضـعا محبة من ثدي واحد، تقودها أنفها دائمًا إلى حرائق الروح، كلما تشـــممت في يقظتها أو منامها شـال أم عقل الذي كثيرا ما أواهما من حر الصـف ووقاهما برد طوبة

على الكافتيريا، تتذكر حين جلست مع رنا، وأشارت في ألبوم صورها، إلى الطفلة التي كانت تتقافز بين أشجار التين، وقالت لها بحزن عميق، هذه أنا، كنت أمرح وســط زروع الخيار والبندورة العجور، ظلت تحكي

لها كثيرًا، حتى قالت لها إنني المرأة التي لا تصـــدق ما تراه الآن في المرآة، وتفهم بصــعوبة ما تســمعه الآن من ابنتها ذات الثمانية عشــرة عامًا، الفتاة التي تقيم البيت ولا تقعده بسبب عدم رضائها عن شكلها أو لون التيشــيرت الذي ســترتديه وهي خارجة الآن مع أصــدقائها، كتبت "ميســيج" على الواتس أب لصــديقها: ســأتأخر حوالي ٣٠ دقيقة.. لك مطلق الحرية" وأضافت بجوارها "إيموشن" لوجه جادٍ حازم.

على الكافتيريا، أخرجت رنا ورقة قديمة، قالت أنها الرســالة الأخيرة التي جاءت إليها من بيت ساحور، وكانت تحمل توقيع أمها، كوني كما أنت بنت أمك وأبوك، أثق بك يا رنا أنك ستصيرين إلى الأحسن، خذي من بناتك صــديقات كما اتخذتك لي في أخريات أيامي، هذا بعض ما جاء بالرسالة، وجعلهما تبكيان كثيراً.

إبراهيم الجيدة

فاجأه شـادي ابن شـقيقه، بالسـؤال، وهو يقرأ له الرسـائل والتدوينات في أجندته القديمة؛ ما معني " خرتية" يا عمي؟! هي زوجة الخرتيت؟!

ضـحك "عقل" كثيرًا، مما توصـل إليه الطفل شـادي، تذَكّر أنها الكلمة القنبلـة التي وردت في جملـة فـاروق عبـد القـادر لأحـدهم، على مقهى سـوق الحميدية بميدان باب اللوق، يااااه أين جلسـة الأحد؟!، وبكى كثيراً، لأول مرة يتجرع مرارة التذكر هكذا، خلت الأماكن من عاشـقيها، ولم يعد المكان كما أراد له المنشـئ الأول، زبائنه كانوا على الفرازة كما يقولون، مثل معظم محلات وسـط البلد، حتى أواخر التسـعينيات، والعابرين منهم كانوا يشربون عصير البرتقال وقوفاً، وينصرفون، لم يزل طلال صـاحب المقهى يعطف على القطط، عقل يدرك ذلك بأنفه حين يدخل إلى المقهى، أو حين تفزعه إحداهن وهي تمرق إلى أي شـيء، من بين ساقيه، يحزنه أكثر أن يسمع أصوات من يجلسون الآن وكأنه ثغاء ماعز أو صرير فئران!

آه يا شادي، ربما وصفك يقترب من المعنى قليلاً، اقرأ لي يا ولدي باقي المكتوب، " اسـمعي يا حمدية، اليوم تغيرت لدي مفاهيم كثيرة، تعرفت إلى شـخص أعجوبة، اليوم الأحد من أيام عام ١٩٩٦، ومثل كل أحد،

أو دعيني أقول لك قبل أن يبدأ فاروق نوّته، بالاستمتاع بالبارات وسط البلد، كان يجلس على مقهى سوق الحميدية، يلتقي أصدقاء وأنداد و محبين ومستمعين من كل مكان، كان الشاب الذي تجاوز الأربعين من عمره، بقيل، يجلس صامتًا، يبتسم حينًا، و يناكف في شقيقه أحمد حينا آخر حين يبتعد عن المكان قليلاً، قال فاروق لأحد هواة السطو على الغرباء، ده الأستاذ ابراهيم الجيدة راجل قطري آه وخليجي أي نعم، هكذا تقول الأوراق الرسمية، لكنه مصري الهوى و الدماء و الطابع، إياك يا " فلان" ابعد عن سكته أفضل لك، هو لا يحب " الخرتية" وخاصة خرتية المتثقفين، انصرف هذا "الفلان" من وقتها، وإلى أن مات فاروق عبد القادر لم يجرؤ على الوجود في الأماكن التي كان يسطو فيها على الضيوف والغرباء، مرة بحجة أنه ناشر، ومرات بحجة أن طفلته مريضة، مع أنه لم يتزوج حتى الآن!

المهم يا حمدية، بعد هذا اليوم وجدت نفسي أقترب من هذا الرجل، إبراهيم، شخص عجيب، غريب الأطوار، مرة يدخن السيجار الكوبي، ومرات يضيق حتى من رائحة الدخان، التصقت به أكثر حين رأيته، هو الذي لا يطلب شيئا لذاته، الخليجي الوحيد الذي ما إن ينزل القاهرة لا يبحث عن أي أشياء أخرى، سوى مواعيد حفلات الموسيقى في الأوبرا، وزيارة المتاحف، وزيارة معارفه وأصدقائه من المبدعين و المفكرين، وما بقي من وقت زيارته، يقضيه في وسط البلد، رغم أنه كثيرًا، ما عزمني في الميريديان وهيلتون النيل، إلا ان سعادته الكبرى، كانت في " بار

ســـتلا ومقهى الحرية"، بالاعتياد عرفت انه ليس من الذين يشـــربون " البيرة" كي يشربون، بل ليعطي فقط الجرسونات في هذه الأماكن، يحب وليم وسـيد حماد في سـتلا، وعم سـعيد وميلاد ووليم في الحرية، يذهب فقط إلى هذين المكانين من أجل هذا الغرض.

ما قد يدهشـك يا حمدية، وانت بنت اليسـار المصـري، أن إبراهيم إن لم يكن مليونيراً فعلى الأقل هو مسـتور، هو لا يدعي أي نوع من الإبداع، يكتب فقط مقالاً صـحفياً، كل أسبوع، لكن مع ذلك هل تعرفين أنه يخدم الثقافة في مصر أكثر من المثقفين؟!

أقول لك، ها هو اليوم ومعه ملاك السـائق وشـقيقه أحمد الجيدة، وأنا معهم، ظللنـا نلف على معظم مقـاهي المثقفين، كي نوزع عليهم "مجلـة الجسـرة الثقافية " مجاناً، ومع ذلك كما تعلمين، معظمهم لا يشـكر، بل تدور حكايات هنا وهناك، والأبشـع من هذا أن معظمهم لا يقرأ، إبراهيم لا ييأس، يبحث عن كتاب ومثقفين كي يكتبون في المجلة، ولإدراكه ما للدكتور مراد عبد الرحمن مبروك صـــديقنا القديم، من وعي ومعرفة بمبدعي مصـر خاصـة في الأقاليم، لعلك تتذكرينه، الناقد الذي كشـف سرقة أحد كبار الأدباء من كتب التراث، أسند إليه الإشراف العام على المجلة منذ سـنوات، وهاهي محتشـدة بأكثر من نصـفها بمواد وإبداعات لكتاب و مبدعين مصريين.

إبراهيم يا حمدية، كثيرًا ما يفاجئني بالســـؤال: يا أخي ليه بتعملوا في نفسكم كده؟! أنتم مصريين عارف يعني إيه مصريين؟!

خير يا إبراهيم؟!

أنتم لا تقدرون أنفســـكم، لديكم مبدعون في كل المجالات، لكنكم، تهملون في حق أنفسكم كثيرًا، يغيظني كثيرٌ ممن يسمون أنفسهم من النخبة، وفي ذات الوقت لا يدركون بديهيات أن تكون من النخبة، يعني أنك عندك رؤية ورؤى كاشــفة، فلا يصــح ما أســمعه الآن، من قول بعضــهم؛ " لقد خُدِعنا في الإخوان، ومن قبل كانوا يكررون كالببغاوات: أنهم فصــيل وطني" عن أي وطن يتحدث الإخوان عزيزي " عقل" ؟ هم لا وطن يهمهم تهمهم فقط فكرة الخلافة بماضــيها المشــئوم وخاصــة النموذج التركي!

كان هذا الحوار بيننا في أعوام انتكاســة مصــر، ولو كنت أســتطيع يا حمدية، أن أنقل لك مدى فرحة إبراهيم بما حدث في ٣ يوليو ٢٠١٣، لربما ظننت إنني أبالغ، إذ قلت لك، إنه كان أســـعد من كثيرين من المصريين!

أحمد الجيدة

كلما تذكر " عقل" ما كان يفعله أحمد الجيدة، يضـــحك ويبكي في آن واحد، يا إلهي أهناك بشـــر بهذا الحضـــور والفطنة، رغم ما قد يبدون عليه من مظهر أو ما نتوهمه نحن عنهم؟!

يمضـى كأنه لا يرى أحدًا، أو يرى ما يريده فقط، وأيضًـا لا يسـمع إلا ما يحلو له، ثلاثة من البشر فقط في مصـر استطاعوا إنطاقه، أحدهما يشـاكســه دوما فيجعله يكشـف بلاويه أمام جمع من الناس، يسـتمتع "ملاك" دومًا بـ "جرّ شَـكَـل" أحمد خليل، وأحمد يتصرف من أرضية محبة لملاك، لا تعرف إن كان مصدرها طيبة أحمد، أم إحساسه بخوف ملاك عليه الدائم و مصـاحبته في فسحته عبر مقاهي و شوارع وسط القاهرة، لا طعم للشـــيشـــة بدون وجود ملاك معه، و لا معنى للبنات المتسكعات في التوفيقية أو زهرة البستان إلا حين يناغشه ملاك أيضًـا، منذ بدايات التســـعينيات يتردد مع شـــقيقه إبراهيم الجيدة على مقاهي المثقفين، الغريب أنك حين تسـأله: من تحب؟!، كان يفاجئك بإجابة لا تردد فيها: عاطف صدقي.. رجل طيب، وبعده عشق أحمد نظيف، ولا تدري لأي سبب لم يكن يحب أن يسمع أسماء رؤساء وزراء آخرين من خارج مصر، ربما لأن الأسرة معظمها هواها مصري، أو ربما أن أخبار مصـر تسـيطر على العالم كله حتى في لحظات ضـعفها، وحين يأتي ذكر أي من الشـخصـيات الحاكمة بالسـعودية أو قطر أو الكويت، لا

يعلق بشيء، ويشيح بوجهه ناظرًا يده في وجه من يحدثه، حتى إنه كان دائما يصف أحدهم بالـــ "خايس "، وحين سألنا إبراهيم: يعنى ايه خايس؟، قال: يقصد ماعنده شيء من الرجولة، بالمصري كده، يعنى مخصي!

نضحك جميعنا، وأحمد يكتفي بتصويب النظر إلينا، وكأن عينيه تتساءلان: لعلكم جماعة من العبايط والبلهاء علام تضحكون؟!

أحمد لا يتكلم كثيرا، لكن حضوره في الجلسات، يترك أثرًا لا يخطئه قلب يدرك معادن البشر الحقيقيين، كلما سار في شارع تأملته النساء، إحداهن قالت؛ أنه به سرٌ أو ممسوس بملائكة، إذا اقترب من بعضهن ينظر إليهن فقط، ثم فجأة يطوف حولهن، و يتركهن و يمضي، يحوطه ملاك بعناية كأنه ابنه البكري رغم تقاربهما في السن، وحين تسأل أحمد لماذا تحب ملاك ضاحكا، يقول: خوي إبراهيم يحبه وأنا أحب إبراهيم، أبو جاسم و .. و.. ويعدد أسماء أبناء وبنات إبراهيم، و يختتم وصلته بقوله: ربنا يخليهم إياه أخوي إبراهيم

مات ملاك فجأة، وحزن أحمد كثيرًا، حتى أنه انقطع سنوات عن المجيء الى وسط البلد، وكلما حادثه أحدهم عن ملاك، قال: مسكين مات لوحده، مات قبل مانعمل له العملية، الله يرحم روحه، بس أخوه صموئيل طيب، وانت كمان طيب، وفي أول مجيء له بعد وفاة ملاك، قاد لهم صموئيل السيارة، لكن أحمد لا ينسى ملاك، و لا ينسى

مشـــاكســـاته، يذهب إلى مقاهي التوفيقية، ويتركنا جالســين، ويمضـــي مسرعًا وراء إحداهن، لا يتكلم، يسير بموازاتها فقط، وينظر الى وجهها، ثم يتركها عائدًا، وكأنه كان يتحقق من امرأة يعرفها، أو نموذج مرسـوم في خياله منذ الأزل، أحمد مسـكون بامرأة، لكن لا تعجبه ولا أي امرأة، لا في القاهرة أو في الدوحة أو بيروت ولا حتى في لندن! لا يقل شـيئا أيضًـا، ولا يقدم على أي فعل، سوى أنه ينظر في وجوههن و يمضـي، و إذا كن منتقبات يطوف حولهن عدة مرات، ثم ينصـــرف، مشـــيحا بوجهه، ولا يعلق بشـيء سـوى: أنا ما عندي ، انا بطني خايس مافيش تخليص!، وما ان يحاول أحدهم الاشـــتباك معه ظنا منه أنه يعاكس نسـاءه المكفنات بأكفان سـوداء، يقفز ملاك مثل أسـد، ليحيطه بذراعيه و يخلصه من هؤلاء الغرباء الذين لم يفهموا براءته

(١٣)

ارتبك عقل أمام كمية الرســـائل، والنطق المكســـر والتأتأة التي كانت عليها حالة الطفل شـــادي ابن شـــقيقه وهو يقرأها له، ليفرزها ويرتبها، حزنٌ جديد يُضـــاف إلى ما في أحشـــائه من أحزان معتقة، ها هو لا يعرف تواريخ الكثير منها، والزهايمر التهم الكثير من مناســـباتها، يبكي كثيرًا، ليس فقط، لتذكره بعضًـا من أطياف زمان هذه الرسـائل، بل لأنه وهذا هو المســـتحيل في ذاتـه، لو رأى خطوط من كتبوا إليـه، وخط موريس الذي كان يحبه كثيراً، كان يراه في الماضـــي قبل أن يكف بصره، تجسيدًا حقيقيًا لما يدور في أحشائه، ذهل شادي بن شقيقه حين رآه يتشـمم بعض الرسـائل، حاول الطفل تقليده، لكنه لم يشـتم أي رائحة سوى بعض العطن الخفيف الذي أصاب الأوراق، قال له يا شادي: اقرأ يا حبيبي، ربنا يبعد عنك نار الحنين، فلن تشتم ما أتشممه!

قرأ شادي، ما كتبه موريس نقلاً عن لسان " عقل":

هوه قال ان دى بتاعتي ، بس انا مش طمعان فيها ، انتو ابقوا حافظوا عليها بقى

انا شفته امبارح شايل حاجة كده (و أشار بكفين مقوستين متواجهتين) زى البطيخة يعني

ده بجد و حياة المسـيح ، ذات نفســه ..و كمان و حياة رحمة سـيدك حسن ..علشان تبقى تصدقنى

هو جالي بالليل و كان وشّــه منوّر قوي قوي، حتى انا ماعرفتش اشوفه كويس ، بس أنا عارفه من ملابســه و شــعره الطويل و عارفه اكتر من ابتسامته اللى بتفكرني بحنيّة خالتي أم عقل قريبتكم .. آه و الله ..

لم ينطقها حمادة عبد العظيم هكذا ، كان بين كل حرف و ما يليه يشــد نفسًــا من الســيجارة البلمونت، أو يقلب المونة الجبس مع الأســمنت الأبيض و يناولها لي ،و انا على السقّــالة التى نصبتها أمام محراب مســجد المحطة الذى يقع أمام منزل الأســتاذ منير زكي تواضــروس، وحمادة لا يكف عن مشاكسة الدكتور أيمن ابن الأستاذ منير: هات لنا براد شــاى يا دكتور احنا بنبيّض الجامع اللى قدامكم، و الأســتاذ عقل ابن عمى شــفيق أهه واقف على الســقالة وماقالش ان ده جامع ولا كنيسة!

ســألته ضــاحكاً : مين هو اللى منور و شــايل حاجة زى البطيخة يا حمادة ؟!

المسـيح سـيدنا عيســى يا معلم ..أُومّال انت أسـتاذ ازاى و بتكتب فى جرانين و بتاع ؟ و مش عارفه ؟!

تمتم بصوت مكتوم متقطع : جاتها نيلة اللى عايزة خِلْقة من الأصناف دي !

ثم بدأ صـــوته يعلو : انا حمادة اللى بيقولوا عليا عبيط انا عارفه و شـــوفته ..طيب ، و بفزع صـــاح :خد يا معلم أتناول من إيدى المونة الجبس ها " يشك " ..

عليك سيجارة لي بقى

دخل حسن عبد التواب يحمل براد شاى و طبق " فايش " : صباح الفل يـا مقـدس عقـل .. منوّر يـا معلم حمـادة ، نزل " عقـل " من على السقّـالة، و انتحى بعيدا عن المحراب يدخن سيجارة ، كان الحاج عبد النعيم زميل والده فى السـكة الحديد هو القائم على عملية إعادة ترميم و طلاء المسـجد ، حين سـأله :بدون إحراج يا عم الحاج ، ممكن نشـرب سـجايرنا و احنا بنشـتغل ؟ .. بابتسـامة ودود قال الحاج : آه براحتك يا ابو المقدس ، احنا طالما طوينا الحصـــير ، و بنشـــتغل يبقى عادى ، بس أول الأذان مايؤذن يا إما تصـــلي معانا يا تزُوح تشـــرب شـــاى و تدخن عند خالك عقل ابو فهمي أو صـــاحبك الشـــيخ عبد التواب ابو عادل.. و على راحة راحتك يا ابو المقدس

خارج المســـجد ،عَبَرَ الطريق الأســـفلتي، جلس بجوار الزير على حافة ترعـة" البربخ " ، هنـا كـان حســـن يبيع عيش و طعميـة ، نخنوخ ابن

المقدس ســـعيد ابو فهمي يجلس بجواره دائما ، من يراه لا يصـــدق ان عمره ٣٦ عاما ، جســـد طفل لم يتجاوز الســـابعة من عمره ، إلا إنه صـاحب عقلية رجل طاعن فى التجربة و الحنكة ،الكل اجمعوا على إنه خلفة عواجيز ،هو لا يعبأ بما يقولون ، يترك لهم المجال يهلســون عليه و كـأنـه ليس موجودا ، إلاّ أن معظمهم يضـــــع يده على قلبـه إذا همّ نخنوخ بالكلام ، تناول الجوزة من جوار فاترينة حسن و اخذ يكركر فى مائها و هو يشد أنفاس لا يراها غيره ، فلا الجوزة عليها حجر به معسل أو قالوحة محروقة ، و فجأة يصـــرخ لاعنًا المعســـل و مدخنيه ! ، و يواصـل متوجها الى حسن،أنت شفت البت " خلود " بت إنصـاف ؟ أيوه يا شـيخ نخنوخ مالها بقى ؟ ..حسن يعرف عنها كل شـيء لكنه يتظاهر بعدم المعرفة ليسـتمع أكثر الى نخنوخ و هو يصـف مفاتنها ، و يحكى عن مغامراتها معه و هو جالس في موضـعه لا يتحرك ، يصـرخ حسـن يـادين النبي ! .. يـا عم نخنوخ انـت طول النهـار معـايـا ..ازاى بقى قابلتها و قابلتك ..انت هاتجنني يا شيخ ؟!

يلقى نخنوخ صـنارته فى زير المياه المكسـور الذى لا يشـرب منه احد و يستخدمه حسن فى غسل المواعين ،

من بين نبـاتـات الغـاب المتداخلـة على حـافـة ترعـة البربخ يخرج نخنوخ يشـد فى لباســه الداخلي، و يفاجئ حسـن بصـرخة كبيرة ، أهه الأسـتك اتقطع يا عم حســـن يلعن ابو خلود على ابو اللى جابها ..ثم يهدئ من

صـوته و كأنه يتحدث الى نفسـه.. بس ابوها كان راجل غلبان هي بس اللى كلبة زى أمها بالظبط .. و انا مالى ..

بعد ما يقضـــى قعدته مع حســن الى بعد الضــهر يروح قاصــداً بيوت الصـــيادين المجاورة لترعة الإبراهيمية الكبيرة، و التي يطلقون عليها تسمية البحر، سيدات بيوت الصيادين يحبون نخنوخ ، و يتباركون به ، حفظوا عن ظهر قلب جملتـه المعتـادة ، وسّـــعي يـا بـت انـت وهي وسّعي.. عايز أصيد من الطشت ده قرموطين يا بت يا فايزة " قبل ما يفطّوا بين رجليك ..الحاجة فايزة زوجة حســونة الصــياد تقول له وهي تضـحك : ينيّلك على عمرك يا نخنوخ ، ده انت ابن ناس ، أحسن ناس البلد ، أبوك المقدس فهمي على ســن و رمح، و تضــحك و تعطي له سمكتين أو ثلاثة

يعود نخنوخ الى موضـعه عند حسن ، يرمى الصـنارة فى الزير ، و في غفلة من حسن ، يلضم سمكة ـ مما خبّأه داخل فانلته الداخلية ـ فى الصنارة ثم يصيح عليه مستنجدًا :إلحقنى يا حسن ..إلحقنى .. الصنارة بتغمز و تقيلة قوى يا بن عمي .. يشدها معه حسن و فعلا يفاجأ فيها بســـمكة قرموط كبيرة، فى أول مرة عملها فيه نخنوخ ، اقتنع حســـن بـالحكايـة ، و نـاس البلد، منهم كثيرون قـالوا على نخنوخ : ده مبروك قوي ،الســمك بييجى له من الترعة مخصــوص على الزير المكســور ، حتى ان النساء العواقر ، لم تترك واحدة منهن إلاّ و لمست جسد نخنوخ

العجيب أو جعلته يلمس جزءًا ما من جســدها ، و كثيرات منهن حملن و أنجبن أطفالاً ، و كثيرات منهن أطلقن اســم نخنوخ حتى لو من باب "الدلع" على أبنائهن !

تخيّلى يا أماني الواحد ماعادشــي عارف الصــح من الغلط ، يعنى كان لازم خـالي يعيش كل عمره في الاســـماعيلية ؟! و انـا و انت و كل الفروع الصـــغيرة لا يرى قريبه أو يعرفه إلا بعد كل هذا العمر ؟! .. الله يرحمك يا خالي سعد.. كانت المرة الأولى التى يرى فيها إسماعيلية و كـامبـات الانجليز، و حـدائق المـانجو حين كـان عمره ٢٤ عـامـا ، أرسلته منطقة تجنيد أسيوط الى مركز توزيع الحلمية، و الحلمية أرسلته الى هناك ليقضـــى فترة خدمته الوطنية في إحدى الكتائب ،على حافة القنـال ، قـال لنفســـه آنذاك " من المدن لن تتعرف مهما أوتيت من حصافة على معادن الناس الحقيقية ، ناس المدن ظاهريون ، في شوارع و محلات أي مدينة تتبدى خســة و نذالة القروي فى أجلى صــورها ، حتى لو لم يكن كذلك ، يكفي أنه يجدّ في محاولات بائسة لتقليد لهجتهم تاركا لهجة آبائه و أجداده ، هو كقروي صعيدي ، أحس في هذه الحالة بكتمة في صـدره ،كان كمن يخون أهله عامدًا، أو يتنصـل منهم بطريقة ما ، لكنه مضــطر الى أن يدرب لســانه على لهجة أبناء المدينة ربما ليجـاريهم و لا يكون محلا للتنـدر، و ربمـا لأنـه يرى أن هـذه اللهجـة المدينيـة التى يظن أنهـا علامـة على الرقي ، ربمـا تمنحـه برجوازيـة أو مظهرا أرستقراطيا ينشده .

على حافة القنال، رآهم عائدين من الفالوجا، يقبّـــلون أيدي المهندس، صـاحب فكرة اختراع المضـخات المائية ، عبد الناصـر كان يحتضـنه بقوة و يبكي قائلا : هذا هو ابني الأصـــيل الذى بـه طـاب مرقدي ، جلجلت ضـــحكة الســـادات و هو يقول مزهوًا: دول ولادى، كلهم ولاد مصـر، انت علمت و انا كملت يا جمال ، لم يكمل جمال ابتسـامته ، حين رأى على بعد طيور سوداء تحط على أشجار الصفصاف

في ســتاد القاهرة عاد الجندي الغائب منذ ســنوات، بكى كثيرا وهو يرى قتلة مهندس النصر يجلسون مكانه! انتحب أكثر وهو يرى شخصًا يقال أنه صـــار رئيسًـــا يشـــبه عمال البلدية و هو يقوم بدور عامل تقليم الأشـجار البليد، أو كاره الخُضـرة، الذي يجتث الشـجرة من جذعها، بكى الجندي حتى تسـاقطت من أفروله دماء زملائه التى اختزنها النسـيج و هو يحملهم جرحى أو قتلى، رآهم يُقتَلون مرة ثانية

(١٤)

حِمْلٌ ثقيل، سخونته المشتهاة خففت منه، حطّ على جزء من وركه، كان مابين النائم و مابين الذي يقاوم لفحة الهواء البارد من نافذة الميكروباص، لكنه استغرق في لحظات نوم، فاز بها في غيبة سلطة القهوجي، كثيرًا ما أحرجه بقوله؛ "هنا مكان أكل عيش يا أستاذ، كفاية الحال نايم لوحده "، قالت له أم حسن " كل الخير ده ومالهوش حد؟!"، دمعت عيناه وهو يقول لأمه حين ضبطته: سامحيني، الأرملة أغرتني؛ بما يشتهيه شابٌ مثلي، سامحيني، أنستني وجودك بالبيت..

استيقظ على ضجيج مشاجرة بين السائق، وامرأة أخرى من أجل ربع جنيه بقية الأجرة، نظرت المرأة في عينيه مشفقةً؛ شكلك جعان نوم يا كبدي، ابتسم وهو يتأوه، من صراع مابين لذة سخونة وركها، وبين لفحة الهواء البارد، أفاق على محاولات نائم يتحقق من ملامح صورة مغبشة، إنها تشبهها!

تظاهر بالنوم هذه المرة، حتى إذا ما تحرك كوعه يلتمس دفئًا من صدر أطلقته صاحبته داخل عباءتها السوداء، نجا من لوم المرأة أو تعنفيها المبالغ فيه، وهي تدّعي طهارة تشتاق إليها..

في المقهى، بكت كما لم تبك أمامه امرأة من قبل، أنهت على ثلاث علب مناديل، مما فرضته عليه عنوة طوال النهار متسولات صغيرات، شفطت أشياء محتبسة مابين أنفها وحلقها، وضع القهوجي كوب الشاي بالحليب و فنجان القهوة، نظرت بغيظ إلى كوب الشـــاي بالحليب، و صرخت صرخة لم يتوقعها.

الرجل الوحيد بالمقهى أصابه الهلع: خير يا ابني .

– خير يا حاج .

ابتســـمت، واشـــتعل وجهها بحمرة الخجل، ووجهت حديثها إلى الرجل:معلهش يا بابا ..أنا استغفر الله العظيم مش باطيق الشاي باللبن ، وكأنها قرأت ما في ذهن الرجل، أردفت: عارفة ان ده حرام وأنا وش فقر

– لا فقر ولا حاجة يا بنتي ده " أُنفس" والنفس و ما تريد.

انشـــغل الرجل في معاناته مع أوراق صـــغيرة؛ يطبق الواحدة منها عدة مرات، ثم يفكها ليقرأها، و يشطب منها أشياء ليثبت غيرها، ثم يعيدها تطبيقتها الأولى، ليضـــعها فى أحد جيوب البالطو أو الجاكيت اللذين يرتديهما، فوق بنطال غريب عنهما.

وانت بقى عايش فين ومع مين؟!

لم يجد إجابة سـريعة تنقذه، بعد فترة، قال: أنا أصـلاً جاي يومين و مروّح

قرأ كذبته في غمزة عينيها، ومع ذلك لم تعلّق بشيء

ما حيّره فيها، إنها ترتدي عباءة سوداء كالحة، كأنها لم يمسّها ماءٌ منذ عشـر سـنوات، لكنها حين أرادت إخراج بعض النقود من جيب لها، رفعت العباءة، وإذ بها تكشـف عن بنطلون و"هاف بوت" جلدي؛ لا تخطئ عين من تراهما أن لهما ماركة وثمن!

قرأت سؤاله قبل أن يتحول إلى صوت على شفتيه؛ وبددت حيرته:

– ده لزوم الشـغل، في النهاية أنا مرات بواب، و عايشـة في الطالبية، من رابع المسـتحيلات، أخش حتتنا باللبس ده، وبعدين ها ابقى مطمع للي يسـوى واللى مايسـواش، انا خلقتي كده، جسـمي هو روحي، و ما باعرفش زي بتوع التليفزيون و المتعلمين أفْـصِل ما بينهم، علشان كده مش بادِّي نفسي غير للي انا رايداه بجد..

في منتصـف الطريق من ميدان التحرير، متجهًا إلى محطة باب الحديد "رمسيس"، توَقّـف بجواره فجأة، أتوبيس "٥٠٠" التحرير– المطار، لم يتردد، أعطى الكمسـاري نصـف جنيه، مما أعطته المرأة التي لم يعرف اسـمها، حاول أن يتذكر أين رأى هذه الملامح فيما قبل، أخفق تمامًا، واسـتغرقه نوم، ملتذاً للهروب من هواء الفجرية البارد، أيقظته هذه المرة

أصابع تتسلل إلى جيب البنطلون، ظن أنها يد الرجل الذي جلس بجواره لحظة أن ركب الأتوبيس، فتح عينيه على امرأة دسمة، سألها : احنا فين؟ قالت السيدة احنا داخلين على نفق العروبة، وانت بقى رايح المطار ولا محطتك فاتت؟، قال بثقة لا يدري كيف جاءته، لا طبعا رايح المطار، وانت؟ انا برضه ها انزل قبل المطار بشوية، مساكن شيراتون يعني..

سرت أصابعه، كأنها تحصي شعيرات ذقنه التي طالت عن المعتاد..

قال له أبوه معنفًا: إياك اشوفك تمشّي المَكنة تاني على دقنك!

قلّب في الدولاب القديم وجدها كما هي، والموسى " الناسيت" الذي استخدمه أبوه ٣ مرات و تبقّى له مرتان او ثلاث، كان يحلق ذقنه بجانب واحد من الموسي، ثلاث مرات متتالية.

الآن انتهت حيرته أمام سؤال قديم مضى عليه عشرون عامًا؛ كيف كنت تعرف يا أبي أي جانبي الموسي لم تستخدمه بعد؟!

بموسي قديم كان يقطع نصف الورقة التي تغلّف الموسِي الجديد، و يترك نصفه الثاني بورقته كما هي، حتى يأتي دوره، فينزع عنه الورقة المرسوم عليها تمساح شجه الموسي ذاته؟

ماكينة الحلاقة، و سـوتيان أسـود قديم، و زجاجة حبر أسـود ماركة " رومني"، وقلم أبنوس، و ورقتي كربون أزرق، ومسطرة خشبية، هذا كل ما ورثه عن أبيه..

سأل أمه بخبث ضاحك؛ عن السوتيان الأسود، قالت: إنها غمامة كان يضعها أبوك على عينيه لما يحب ينام و هو مسافر في القطر، علشان النور ما يضايقهوش، يا أمي ده سوتيان حريمي، ياولدي أبوك قال لي كده وانا مصدقاه، المهم مش في الشيء يا ولدي، المهم في استخدامه، أمسكت منه السوتيان، تظاهر بالابتعاد عنها، قربته من أنفها؛ يووووووووه بس برضه ولوْ، كان طول عمره يحب الروايح الحلوة، وانا طول عمري غلبانة وراضية بقليله، تحول همسها لنفسها إلى صوت مسموع؛ بس على فكرة طول عمره حِنيّن معانا، وعمره ما أذاني، قدام كل الناس مخلّي مقامي فوق الفوق.

(١٥)

قبل نفق العروبة،هجم عليه كلب بني اللون، لحس وجهه وزفر في صدره، تخلى مؤقتًا عن سذاجته الرومانسية، و لم يسأل مثلا؛ كيف يهاجمني كلب وأنا داخل أتوبيس نقل عام، لم تزعجه هوهوة الكلب، بقدر ما أربكته قبضة الشرطي، الذي هجم عليه من وراء الكلب، وهي تثني ذراعه خلف ظهره، في لمح البصر، قبل أن يستوعب أي شيء وجد نفسه أمام القصر، لن يأخذونك إلى الداخل بطبيعة الحال، أعطوا بطاقته الشخصية لشخص أدهشه منظره، كان يتبختر أو كمن يسوق أمامه كرشًا، تعهد برعايته، داخل جلبابٍ بني اللون، دخل من باب صغير كأنه محفور فى البوابة الكبيرة، لم يستغرق أكثر من ربع ساعة، وخرج صائحًا في ضابط البوكس؛" ده بالذات مافيش خوف منه لكن من باب الاحتياط، نبّه عليه ما يجيش ناحية المنطقة دى تاني"

فاجأ ضابط البوكس بسؤاله؛ أين الكلب الطيب الذي أدى دوره بأمانة و لم يعضني أو يخمشني بأظافر رجله؟!

انتفض:اسمه سيادة الرائد يا بني آدم، ده أصلاً أقدم مني في الخدمة، وأقدم من الكروش اللى شفتها على باب القصر، أهه خِلَق بلانا بها الزمن الأيام دي..

جملتك الأخيرة كأنها نداءٌ لحوار ما، أو قشـــرة موز ينزلق عليها الزبون المقبوض عليه، هذا ما قاله لنفســه، وهو ينظر فى مرآة البوكس، ليتيقن من ملامح الضـابط إن كانت جادة فى الرغبة للحوار، أم إنه يسـتدرجه، هو لن يفرق معه الأمر شـيئًا، "حوار وللا زحلقة مش ها نخسـر كتير"، كما يقول دائمًا مذكرًا نفســه بأن الحياة، ســواءً كانت طويلة أم قصــيرة، جادة أم عبثية،هي في نهاية الأمر مغامرة؛ لم يتبق لديك ما تخسره

بس لعلمك يا باشـا انا أول مرة أشوف نقيب شـرطة و ذقنه مش محلوقة كده؟

اكتفى الضــابط، بابتســامة ســاخرة، تُوحي باســتمتاعه بتحرره من تأنيب القائد له، لكنها أيضًـــا تحمل تخوفًا، مما تحمله أيام مقبلة: ولســـه ياما هاتشوف أطول من كده !

– تتصور يا أخي، إللا صحيح هو انت اسمك إيه؟

بطاقتي معاك يا باشا..

– ده اللى ناقص احفظ كل الأسماء من البطاقات !

اسمي ، ومدّ في الياء

– يا عم خلاص .. خلي اسـمك لنفسـك، اسـمع يا أخ، البلد داخلة في نفق، أنا مش عارفه ايه هو، وان ماكانش اللى زيك، يقفوا معانا، وآديكوا

جربتوا اكتر من سـنتين من غير شـرطة، و لغاية دلوقت حتى بقينا من غير حكومة أصلاً

فعلا يا باشا، احنا طبعًا معاكم، بس حضرتك تقصد مين بأنتم؟

– مش انتم يا سـيدي خلاص، اقصـد بها كلنا، و خصـوصًـا كل اللى بيشـتموا في الشـرطة، عمّال على بطّال، ابصـم لك بالعشـرة، إننا فينا عدد بسـيط مش على مسـتوى الشـغلانة و المسـئولية، لكن قسـمًا بالله معظم الضباط بيحبوا بلدهم ومحترمين، همه مش بشر ولا إيه؟

لا طبعًا بشر، بس..

– من غير بسـبسـة و حياة والدك، أقصـد أنهم مثل أي بشـر في أي مهنة في الحياة، فيها الحلو و فيها الوحش، و كل تجمع بشـري فيه الفاسـد و الأمين، لكن ظروف مهنتنا هي التي جعلت أقل مخالفة مننا تبقى هي اللى منوّرة و الكل يشـوفها، وكأنهم لا يرون أسـاس الفسـاد، وجرائم يرتكبها خاصة من يطنطنون بمحاربة الفساد..

كل مرة يحكي لـه فيها ما جرى بينـه و بين الضـابط المكلف بدورية الحراسـة حول المنطقة التي يوجد بها القصـر الرئاسـي، يزيد شـيئًا، و يكرر الجديد الذي يضـيفه مرات، تأكيدا على صـدقيته، و العجوز الذي يستمع إليه، وكأنه يؤمن على ما سمع؛ أنا مصدقك ، كل مهنة فيها و فيها، و يضيف: ومصدّق الضابط كمان.

اعتاد الجلوس على مقربة من ترابيزة الأستاذ سالم، هذا هو اسمه الذي عرفه به ، من اتصالات الشاب الذي يجلس معه دومًا، أو من سؤاله للقهوجي، حين يسبقه إلى المقهى؛ هو الأستاذ سالم ماجاش؟

كثيرا ما أعاد على مسامعه، أنه قضى أكثر من ٤٥ عامًا في العمل بالصحافة، بدأها مصححًا بإحدى المجلات الثقافية، وانتهى به الأمر كاتبًا خصوصيًّا لرؤساء تحرير، تعاقبوا على الجريدة، ومابين الجملتين، حياة عريضة، أو قل تاريخ ثقيل من المرارات و الهزائم، كل تنهيدة تخرج من الأستاذ سالم، هي مفتاح إحدى هذه الهزائم، لكنه يضحك دومًا، لا تعرف إن كانت مقاومة، أم استهزاء بالحياة وما فيها، قال ذات مرة؛ لقد منحني الله عرقين؛ عرق الضحك المهتز و عرق الصبر المشدود ومابين أنينهما أعيش، إن لم أجد ما أسخر منه، أسخر من نفسي، وغالبًا لا أجد ما يستحق السخرية، بوغت الشاب بإجابته؛ نعم؛ بل فوق الاستحقاق، إنها منتهى الاهتمام بالآخر، حين سألته: وهل السخرية من الآخرين استحقاق أيضًا؟!

وأضاف، اسمع يا عقل؛ في مشرحة الحياة، ربما ترى أن كل الجثث هي لقتلى أو صرعى حروب أو حوادث سير، لكن لو واتتك الجرأة و تمعنت في وجه كل جثة ستكتشف أين قتل صاحبها و لماذا؟!

تظاهر عقل بالفهم مؤمِّنًا على كلام الأستاذ، أووووه ، بصوت نصف مكتوم، وحاجبين مرتفعين، غفا سالم لبرهة، ناظراً إلى صدره، وكأنه

يستحضر ما سيقوله، و فجأة، كأنه مصعوق بوحي؛ في مدينة الطب ببغداد، وجدنا الولد عقل ابن ناعوم، صدمته سيارة يقودها مخمور بشارع أبو نواس، أووووووه يا عقل كان يوم معجون بالمر و العلقم ، كنا في العام ١٩٨٤ ، وكان الذهاب إلى العراق فريضة على معظم المصريين، كأنه الحج إلى مكة أو القدس، ولكنها أيسر، وبهدف إنساني لعائلة بأكملها كي تعيش، وليس لمجد شخصي للفوز بلقب حاج أو مقدس، المهم، كانت المطاعم والحانات و مكاتب السفر و المصانع و المستشفيات، معظم من يعملون بها من المصريين و السودانيين، و بحكم تعداد كل بلد، كان المصريون أكثر، الله يرحمك يا صدام حسين، عاش راجل و مات كما يحق لرجل مثله أن يموت.

بمظلة سؤال مفاجئ، أوقف عقل أمطار التذكر مؤقتًا، لتتحول إلى سيول؛ وهل قابلت صدام يا أستاذ سالم؟ صدام لم يكن شخصًا لكي تتمنى مقابلته، صدام كان حالة، مؤيدوه يرونها حالة بهاء وزهو وطني، ومعارضوه لا يرون منه إلاّ الجانب المظلم، وكم منهم الآن يعض بنان الندم، لا أنكر إنني تمنيت وقتذاك، أن أتحدث إليه، لأسأله سؤالاً أو سؤالين؛ كيف استطعت أن تؤاخي بين السنة و الشيعة طيلة ٢٤ عامًا؟!، وهل تقتنع بالفعل ببعض الساسة و المثقفين المصريين، الذين كانوا يشتمون الرئيس أنور السادات ليل نهار من صوت مصر العربية في بغداد؟!، لكنني تراجعت في اللحظات الأخيرة، حين وفّر لي أحدهم هذه الفرصة التي لا تتاح إلاّ لمحظوظ، بيني و بينك يا عقل، هات

ودنك؛ أنا خفت، ربما يدير ســـؤالي في ذهنه، وهو ذكي ولمّاح، إنني أشير من قريب أو بعيد إلى ديكتاتوريته، أو قهره لمن حوله، لدرجة أنهم أحبوا بعضـــهم البعض، آااه يا عقل آااه، كم نحتاج هذا الديكتاتور الجميل، ولتفهمني كما يحلو لك، الأعوام التي مضـــت، أثبتت القول المأثور "أن الحرية في يد جاهل، أو مغرض كالسكين في يد مجنون"..

يا عقل ياولدي، وكأنك انت لا تختلف شـــيئا عن معظم المصـــريين، "بورمجية" يعني، تكون الطريق أمامهم واضحة و سالكة، لكنهم يعشقون التخريم إلى شوارع و حارات ، ظنا منهم أنهم سيصلون أسرع أو بعيدا عن الضـــجيج ، لكنهم في نهاية الأمر يتوهون، ثم يعودون إلى بدء الطريق من جديد، لا تفتح دروبًا أمام ماء ذاكرتي فينســـاب إلى أزقة قد لا نخرج منها، خلينا في اللى كنا بنقوله يا عقل، سايق عليك النبي، كنا بنقول ايه؟ .. لا لا يا ولدى قبل ما ندخل على ســـيرة القائد الله يرحمه، آاه ، والله يقدس روحك كمان و يرحمك يا عقل يا ابني، كان وحيد والديه،

لا يستطيع عقل، إيقاف هذا الهدير المرّ، يخشـى أن يسقط في شراك صــراع الأجيال، مأســاة متوهمة لا يحبها كثيرًا، يرى أن البشــرية حالة ممتدة، وأن الوعي الإنســاني حالة متعدّية للجنسـيات و اللغات والأنواع والأعمار أيضًا، هو ذاته ابن تجربة لا ينساها، حكاها للأستاذ سالم، شــادي ابن شــقيقه الذي لم يتجاوز من العمر ســبعة عشــرة عامًا، هو

الذي علمه ألف باء الكمبيوتر، و لا يزال يتندر على نفسه دائما، حين طلب منه شادي أن يرفع الماوس قليلاً، أمسك به ورفعه إلى أعلى، ساحبًا السلك الذي يربطه بالكيبورد، لكنه لا يهضم أبدًا حكاية الديكتاتور و المحبة ومعهما العدالة، بينه و بين نفسه يصرخ، الديموقراطية هي الحل، في مقهى آخر، قال له محمود، في مراحل البناء، الكلام في الديموقراطية ترف، شارك الأول، ثم تحدث يا صديق؛ لا في الديموقراطية كمطلب، ولكن ما نمتلكه حقًا يا صديق، ان نتكلم في السعي نحوها، مصيبة مجتمعاتنا، أننا نتحدث ونطلب أكثر مما نفعل أو نشتغل،حتى أننا أصبحنا مثل عم مراد، عاش طيلة حياته على مبدأ "وكأنه حصل"!

قال بل مصيبة مجتمعاتنا أنها تظن أنها مجتمعات، و كلانا جزيرة منعزلة، حتى داخل البيت الواحد، أرجوك لا تتزيد وتعرّيني أكثر من ذلك، كأنّي بك تقول؛ حتى الشخص الواحد منقسمٌ على ذاته!

إحساس ما يخايله، لكنه يريد تكذيبه، بل يعمد إلى قمعه، تساءل في نفسه؛ ذاك الشخص الذي كان يجلس منذ قليل، فيما يشبه الندوة السياسية، مع الأستاذ سالم وقبلها بساعات مع محمود، وفي المساء على سكايب مع منار ومريد و إكرام، هل هو نفسه الشخص الذي يتعامل و يتحدث الآن مع جاره في الكرسي، و بائع الشاي في القطار، ومن ذا الشخص الثالث، الذي سيكونه بعد ساعات حين يصل إلى

قريتهم، و يتعامل مع إخوته و جيرانه وأصـــحابه، مابين شـــخصـــين يتجاذبان تفكيره، ها هو يعول همّ الثالث الذي ســـيكونه فيما بعد، و حتما ســيكون شــخصًــا رابعًا، وهو يلتقي محبوبته، أو تلك الجدة التي عشق جسدها و هي تريد الحب، وهو يحاول ان يوهمها بذلك!

صـــرخ داخله : القمع هو الحل، اقمع كلاب الجرن التي تجري داخل رأســك، يا عقل، قبل ان تنهش ماتبقى من عقلك، لكنه رغم ذلك، كمن أطلق كلاب الجرن، بل حولها إلى آلاف من النمل، كل سرب يسير في اتجاه، ضاعت منك خيوط ذاتك يا عقل..

أغمض عينيه، ، وارتخى بمســـند المقعد إلى الوراء، ووضـــع الجريدة فوقهما، لا خوفا من الإضــاءة، كما كان يفعل أبوه، لكن هربًا، من ذلك الجار الثرثار؟

لماذا أصغيت من البداية إلى منار؟!

أنت لم تصغ لها فقط، بل هي تسللت كلها إلى داخلك.

هل كانت أسئلتها الجادة، الجديدة عليك؟!

أم وعيها السياسي، و نضجها الإنساني، رغم أنها كررت أكثر من مرة، وهى تفاخر، أنها لم تستهلك دماغها في الحصول على شهادات، تشكر والدها كثيرًا، أنه أخرجها من الصـــف الثاني الثانوي، و تُفاخِر أكثر،

أشـــكرك يــارب لم تبــددني بين النظريــات، ايش ليبرالي، و ايش ديموقراطي..

صــوتها لم يكن جميلاً أو هامسًــا أو رومانســيًا، كما تقتضــيه بعض حالات الولع بالنساء، عيناها المتسعتان اللتان توحيان بفُجْرٍ في الرؤيا، لا تخلوان من وداعة خفيّة، قشــرتها الصــلبة، مجرد أظافر مســتعارة، تخمش بها وجوه المتلصــصــين، وأيدي من يحاولون اقتحامها، صــوتها الذي لا يخرج من شـفتين وحسـب، بل من أحشـائها، مشـحونا بأحزان وهزائم قديمة، يؤكد أنها صـادقة، ليس هناك هدف ما و لا مصـلحة ما، بينكما تضــطرها إلى الكذب، كارثتك معها أنها مُحِبّةٌ حد الجنون، وأنت لا تمتلك أكثر من بذْل ما تمتلك على شاشـة اللابتوب، تمنيت أن تكون هي هنا، أو تكون أنت هناك، لكن هل كنتما ستلتقيان؟!

أم ترى صـدقتها لأنك رأيتها في قصـيدة لامرأة كانت تخايل روحك، قبل أن تلتقيا افتراضيًا، على سحابة الأخ الطيب مارك بن زوكيربرج؟

أنا فلاح قديم

بعرقه

توهّم استصلاحَ الصحراء

لسنواتٍ ظللت أنزف

مسامي تحجّرت

و زحفت على جسدي الرمال

***

مجدًا لك يا إيزيس

أنقذتِني فى آخر العمر

لكن ..

كيف رأيت روحي

تحت هذا الركام ؟!

(١٦)

دخلت أمه إلى آخر غرفة في بيتهم المبني بالطوب اللبن ، تسميها الخزانة، حين سألها: خزانة ايه يا أمي؟، منذ بداية وعيه بما حوله، لم ير في الخزانة سوى الكنبتين الاسطمبولي، و بوريه خشبي قديم، فوقه إطار أسود بداخله صورة مشغولة من عيدان القمح للسيدة العذراء، و بجوارها صورة لجده وهو يجلس على كرسي "العفي" ووالده شابًا واقفاً إلى جواره، أخبروه أن صانع صورة العذراء من برزام أو سبلات القمح، هو المرحوم بشارة، "رغم إنه كان حشاش و بتاع نساوين، لكنه كان واد فنان" هذا ما قاله مكرم أبو حزيّن الترزي.

يعرف أنها حين تدخل إلى الخزانة، لا أحد يستطيع أن يقطع خلوتها، تخرج كل مرة، وعيناها حمراوان، لكنها تبتسم، كأنها أزاحت حملاً ثقيلاً من فوق صدرها.

اعتادت ذلك كلما عادت من حضورها حفل زفاف أو خطوبة شاب أو شابة من شباب العائلة، وبالأكثر تطول فترة خلوتها داخل غرفة الخزانة، حينما تعود من سبوع وليد أحد الأقارب أو المعارف في قريتهم، أو القرى المجاورة، هذه المرة تركت صورة العذراء مؤقتا، و ظلت تتحدث إلى جده، بحيلة ما كان يتنصت عليها، ليس محبة في التنصت أو تطفلاً على خصوصية أمه الغلبانة، لكن لشغفه بما تقول أو تهمس

به، كأنها تصلى أو تشكو، خاصة وأنها يعتريها كسوف عجيب حين تتحدث إلى آخرين، في خزانتها فقط تقول كل ما تريد دون تردد، هناك فقط تفرغ قربة أحزانها، تغتسل من آلام مَذلّـــة الجدة طوال ٢٤ عامًا، وبكلمتين متوهمتين من شفتي الجد الميت، تضمد جروح هزائمها التي تلتهب- كأن شـــوال ملح رشـــيدي دلقه أحدهم فوق جرح مفتوح- حين ترى شبابًا أصغر من ابنها بخمسة عشرة عامًا يتزوجون، وكلها سنة أو اثنين و تجد نفسها مجبرة، بالواجب الاجتماعي، على حضور سبوع أطفالهم، ومعموديتهم داخل الكنيسة، كل زغرودة تطلقها تقضمها قبل نهايتها، و تدمع عينيها، كأنها تختزل ما بقي فيها من نَفَسٍ لزغاريد، حلمت أن تطلقها في عرس ابنها عقل، أما ما لم تفعله من قبل، و لم تصرح به لأحد، حتى لـــ "عقل" نفسه، لكنها جعلته سرًّا بينها و بين " أبوي مراد" لم تقل عنه أبدا إنه المرحوم مراد، تســـتعيد حِنِّيّته، كلما أحوجها الألم، خاصة في هذه الخزانة، قالت له؛ إنها سترقص حتى تقع من طولها في سبوع أول طفل ينجبه، سامحني يا بوي مراد، المرة دي وبس..

تحت شجرة الجميز، التي زرعتها الجدة على اسم الشيخ علي، ألقت ســـاقها فوق ظهر دكر البط، و ملأت كفها اليمنى من الفول و الذرة المبلولين، وأطبقت عليها جيدًا، و بيدها اليســـرى فتحت درفتي فم دكر البط، وبدأت طقس تزغيطه، تظل على ذلك شهرًا أو شهرين، تشتريه فرخًا صـــغيرًا بعد احتفالات عيد الميلاد، بأســـبوعين أو ثلاثة، لتعده

بطريقتها، تغذيه إجباريًا بالتزقيق حتى يكثر لحمه، لتذبحه بعد ثلاثة شهور ونصف، وبالتحديد ليلة عيد القيامة، لا تضع في فمه حبة فول أو ذرة شامية، إلاّ وقالت بركتك يا أم النور، شيء لله يا شيخ علي..

لم يمر اليوم توفيق "بياع البوح"، ربما أهل قريته و بعض قرى مراكز المنيا، هم من يطلقون تسمية "بوح" على حبات الترمس المبلولة المملحة، لملمت أمه ماتبقى من الفول و الذرة، لفته في خرقة قديمة، نهضت تتوكأ على جذع الجميزة، شامخة كجذعها، تتوسل قوة ما بكلمة "يا عدرا "، نادتها أم حسن:

- ينفع كده؟

قولى الأول، وانا اشوف ينفع ولاّ لع يا بنت ابو خليفة

- ولدك عقل نايم ع الحضير، و هو باللباس و الفانلة؟ يا أختي الواد ربنا يحميه، ، شفته بيسيّل على روحه، شكله كبر و بقي راجل و دخله العيش وهو لسه ١٦ سنة، اسم الصليب، انا اترعبت يا أم عقل و حياتك، اسم الصليب اسم الصليب تلات مرات..

وإيه اللى رعبك يا ممحونة!

وهى تدخل من الباب الكبير، أضافت، أنا مش فاضية لك يا بت أبو خليفة، السمنة ع النار، زمانها اتدمدمت، وبدلاً من أن تُدخل دكر البط

في العشة على السطوح، ألقته تحت السلم، وبحثت عن كيس البخور، و جاءت بورقة من كراس، و رسمتها بالمقص على شكل عروسة، وأخرجت من شق الحائط إبرة الخياطة، أشعلت وابور الجاز البريموس، وضعت فوق نيرانه، عضمتين من عضم الذرة الشامية، لا تزال هي على تسميته "عضم"، إلا أبوه، لأنه يتردد على المدينة كثيرًا، يسميها "قوالح"، ليس تعصبًا منه لأمه كان يميل إلى تسميتها أكثر، لأنه يراها قريبة من وصف الإنسان ذاته عضم و لحم..

قال لأصدقائه مرة، إن المرأة هي ماعون الحضارة، تحفظ الأصول وتنميها في حدودها، لا تهجنها، الآباء دائما، يهجّنون كلامهم ومشاعرهم أيضًا، اتهموه وقتها إنه ابن أمه، وكأنهم تعمدوا إهانته، شرح لهم إنه لا يقصد أمه وحدها بل أمهاتهم وأخواتهم البنات وجداتهم أيضًا..

قال له صديقه القاهري، أولا احنا بنسمع الكلام و نفصصه، إزاي هاتبقى اسمها أم حسن، وتقول " اسم الصليب "، أولى لها يا أخي، لما تشوف حاجة زي كده وحسب ثقافتها الدينية، ها تقول مندهشة بالصلاة ع النبي، أو بسم الله ما شاء الله، ضحك كثيرا، و انتبه بقيتهم إلى ما اعتبروه اصطيادًا له من حيث لا يدري، ألقى ماتبقى من السيجارة الكليوباترا على الأرض، و قال؛ يا عم سعد، وحياتك لو هي أم حسن برضه زى ماهو راسخ فى نافوخك، ها تقول باسم الصليب، انت

ماتعرفش بلدنا ولا البلاد اللى حواليها، أولاً أم حسن جارتنا دي مسيحية، و زوجها غاوي مواويل و غُنا و تواشيح، قضى نصف حياته سارحًا في الشـوادر و الموالد، عشـق حكاية حسـن المغنواتي من صـوت مكرم المنياوي بلبل الصـعيد، كما كان يحب ان يسـميه، و لم يكن يعش له أولاد، فوجئ بـه السـميعة المتأوهون طربًا واجترارا لأحزان، حول مكرم المنياوي وهو ينير ليالي قراهم بصـوته و كلوبات الجاز حوله، "وحياة أبوك يا مكرم، هي بس تجيب الواد وها اسـميه حسـن"، وكأنه نذر، مضـت أعوام قضـاها مابين الذهاب إلى الأطباء و الدجالين، حتى البهنسـا راح، هناك تدحرجت أمامه فايزة من فوق الجبل، تلقفها كأنه يحضـن وليده، قال لها برفق قلما سـمعته منه، ما تخافيش أوممال، ما انت فاهمة ان الدحرجة دي علشان الخَضّة، في البيت جلس يصف لها منظرها وهى نـازلـة تتدحرج من فوق، و كيف انـه كـان مرعوبًـا عليهـا خوفا من أن تتدحرج معها صـخرة تخبط في رأسـها، هذه الليلة قالت له: كأننا فى أول ليلة جواز، وهو لأول مرة يقول لها : باعشـقك يا بت الكلب!

اختفى مكرم المنياوي وشـوادر الغناء، منذ سـنوات، بعد ان طاردته فصـائل من السـلفيين والجماعات الإسـلامية والإخوان، و لم يتبق منه سوى شرائط كاسيت في محل أبو حمزة في الحسين، و جرجس الملواني لم ينس عهده أمام الناس، جاءه من يثبت رجولته أمامهم، وضـعت فايزة طفلهما المنتظر منذ ١٤ عامًا، لم يتردد أول شـيء فعله بعد ان اشـترى

لهـا ثلاث دجـاجـات و زجـاجتي نبيـذ الأبـاركـة ولم ينس قنينـة الكينـا الحديدية ماركة البطل، انطلق إلى المســـتشـــفى القروي ، قال لكاتب الصـــحة، اكتب عندك : حســـن جرجس الملواني، اندهش الرجل حتى سقط من فوق الكرسي الملصم.

"ابنى وانا حر فيه يا شوقي أفندي، والأسامي بتاعة ربنا مش حكر على حد"

حســـن جرجس الملواني، عليّ النعمــة ولا في الأحلام، الخوف ان ماحدش يصدقه لما يروح المدرسة أو يقضـي خدمته في الجهادية يا عم جرجس!

ســاعتها يحلها الحلاّل يا شــوقي أفندي، اللى جابه بعد العمر ده يقدر يلهمه يجاوب ازاي..

(١٧)

في تقاطع شارع سليمان باشا مع شارع البستان رأى الأمير نازفًا، قبل أن يصبح السلطان أحمد فؤاد، يتدلى من شرفة كلوب محمد علي، والأمير سيف الدين الذي أطلق عليه الرصاص، يهمز حصانه ليسرع ، ثم غاص في زراعات قصر النيل و بستان الإسماعيلية، و سار بجوار الكامب الانجليزي على النيل، و هو يصرخ :قتلته، يا شويكار يا أختي خلصنا من فؤاد المجنون".

قال له صبحي مشرقي: شايف الزراعات و الجناين دي من أول الأزبكية إلى فم الخليج ، وحتى القلعة ومن هنا وهو يشير إلى ميدان التحرير حتى بولاق الدكرور قبل ما تكون ، كل دي مزارع ابراهيم باشا بن محمد علي، و كانت شويكار وأخوها سيف الدين لهم آلاف الأفدنة منها، وتزوجها فؤاد و كان يذلها، حتى أن مصطفى أمين حكى الحكاية زي ما سمعها من الزعيم سعد زغلول، وقال؛ إن الأمير فؤاد كان مدينًا لكلوب محمد علي بـ ٤٠٠ جنيه قيمة طعام وخمور، وكان مدينًا للخياط الإيطالي ديليه بألف جنيه قيمة ملابس، والبنك الأهلي وبنك موصيري والكريديه ليونيه، وبنوك أخرى تطالبه بديون ثقيلة.

حتى طباخه الخاص، والسفرجي إدريس كان راتبه بالتقسيط، وعندما تولى الأمير فؤاد عرش مصر أنعم على السفرجي إدريس برتبة البكوية،

فتنازل الأخير عن باقي ديونه، وكان مديناً بعدة آلاف من الجنيهات لـ "مدام مخلع باشا"وعندما أصبح سلطانًا عيّنها وصيفة في القصر.

ترك مبنى جريدة الأهرام، بعد أن سلم مقاله الأسبوعي لصديقه عبد السلام فاروق، لينشره في صفحة "الأهرام المسائي الثقافية"، عنوانه" عزلة الخطاب الثقافي"، وصل إلى كوبري قصر النيل، وحصان سيف الدين يجرى أمامه، مر جوار سور السفارة البريطانية؛ مكان الكامب الإنجليزي، عبر النيل و تأسّى كثيرا للزنقة التي وقع فيه الأمير و هو يهرب وسط الزراعات، وحزن أكثر عندما أكمل له "مشرقي" الحكاية؛ الأمير سف الدين، اتمرمط في أوروبا، ومن فرنسا لتركيا لغاية ما جننوه، وفي السجن اشتغل نجار، بجوار أرباب السوابق و القتلة و تجار الحشيش، حتى ان المساجين كانوا ينادونه: سمو الأمير النجار!

قال لنفسه؛ كما كان يقول أبوك دائما "أقرع ونزهي"، أُم الأمير سيف الدين على أُم فؤاد باشا!، ألا يكفيك ما أنت فيه يا سي عقل؟! خليها على الله ، إنني أثرى من أي أمير، يكفى إنني أستطيع الآن أن أنام في هذه الحديقة وسط الشارع، وأقوم أغسل وجهي في أي مقهى، واشرب الشاي و القهوة وأنا حاطط رجل على رجل، هات أي مسئول صغير حتى؛ إن كان يمتلك هذه الرفاهية، هكذا يُعزِّي الفقراء أنفسهم، في الوقت الذي يتأسّون فيه لدحدرة أحوال أثرياء دارت بهم الدنيا دورتها، وتزحزح أحدهم قليلاً إلى الوراء، قدماه مطبوختان داخل حذاء يئن من

كثرة الشـوارع التي يحملها في ذاكرة نعله، ومع ذلك لا يزال مشـفقًا على فريد بك، الذي اضـــطرته الظروف لتغيير ســـيارته الفورد القديمة إلى سيارة فيات!

أمام قصـــر حياة النفوس أو ماتبقى منه، بكى إكرام بشـــرى، وضـــحك أيضًـــا، يا ولاد الإيه! ده أنا زمان كنت ها اموت وأشـــوف إيه إللي جوه القصـــر!، لم يبق منه سـوى أطلال وهدد، راحت ملوي اللي كنا نعرفها يا عم عقل، كان نفســي ألحق أمكّن جزمتي الجديدة عند موريس وأخوه، تعال دي قهوة عنبر، لو شـــاي يبقى عند عنبر ماتقوليش، قال له عقل، أنا نفســـي أفهمك، منذ ســـنوات حاولت فيك نجلس في المقهى ذاته، عملت أبو العرّيف وقلت لي؛ لو ها أصـــوم طول العمر عن الشـــاي و القهوة، ده الولد زي العجل اللى واقف ع النصـــبة طول النهار حاطط صـباعه في مناخيره، ومرات يهرش مابين فخذيه، وشـوف انت بقى في عز الحر يبقى إيه !، ضـــحك ابن الإيه وقال، لا .. هم غيّروه وجابوا واحد رفيع بيهرش في قفاه بس! تعال تعال.. الجيش خلانا بني آدمين لا نتبطر على النعمة حتى لو في إيد كلب !

علبة السيجار التي جاء له بها من " ناشفيل" وشيشته التي لا يكف عن تدخينها، لم تسـتطع اسـتعادة لحظة فرح واحدة من لحظاتهم القديمة، أم السيجار على أم الغدا في سميراميس، الست سجاير الفرط من عم أنور و سـندوتش الفول بتاع زيزو، برقبتهم كلهم، قلّـــب عقل المائتي دولار

التي أعطاها له إكرام، وحسبها في سره، آه تبقى ١٣٤٠ جنيها مصريًا، يعني ١٣٤ ورقة من فئة العشرة جنيهات، فاكر يا إكرام العشرة جنيه؟!

يااااه.. لم أكن أتخيل إنني أرى صـــالون شـــيك، ولا أرى فيه الأســـطى محمود أو الدكتور، دي عيّلت خالص!..

ـ يا عم باكلمك؟!

آه.. آه .. آسف عشرة جنيه بتاع إيه؟!

قال عقل؛ أسميناها آنذاك، عشرة المحبة، ورقة كشفت كم يحب بعضنا الآخر وضحكنا، ثلاثتنا رأيناها أمام نادي الزراعيين،بعد أن عبرنا شارع العرفاني، وخلّفنا وراءنا المتحف، بهاء السيد في وسطنا و واحدنا على يســـاره و الآخر على يمينه، تدافعنا تجاهها وهواء جلابيبنا أنا وبهاء يطيّرها بعيدًا، وقال بهاء أنا أبوكم ، أنا أكبركم، آخد النص، وانتم كفاية عليكم النص، وضـــحكنا، وكل منا أخذ ثلاثة جنيهات ونصـــف، وبهاء رضي في الآخر بالثلاثة جنيهات !

(١٨)

كأنه فلاح يجيء إلى مكان غيطه القديم، يحكى لنفسه؛ شايف يا عبد العاطي شايف؟، آدي الساقية و السبيل اللى عملته جنبها؟ وهناك على رأس الغيط كانت عشة المواشي، حاسب يا سليمان يا بني ..حوش البهايم بتاعتك نزلت من ع الجسر و بتاكل فى القمح الأخضر ياولدي ، يندهش ضاحكًا من نفسه، هو إيه التهيؤات دى يا عبد العاطي، عربيات دايسة في زرعة البرسيم، وجنبها عمدان نور ! و مش قادر صوتك يطلع و تقول لهم:عيب يا بني انت وهو ، كل حي لازم يعرف أصول الطريق، وحرمة زراعة الغير ومايزلش فيها بعربيته كده، ده اللى يدهس نبات أخضر بيركبه ذنب كبير يا أولاد الكاااااااالب!

يتكرر حواره اليومي و تتكرر ضحكاته مع نفسه، أهل البلد أبلغوا أولاده؛ أن أباهم يقهقه كثيرًا وبصوت مرتفع، ويتكلم كثيرًا عن أشياء غير موجودة، أولاد الأصول حبسوه في البيت الشرقي المطل على النيل، لا يؤنسه أحد سوى أطفالهم، يناكفونه و يداعبهم، و سرعان مايسبّ لهم ولأمهاتهم، يفرح كثيرًا حين يطالبونه بحكاية الساقية و الشادوف، وكام قنطار قطن كان يُورّده للجمعية الزراعية أو محلج الخواجا"هاندرسن" ..

في شـــارع شـــامبليون، لمحه، لم ير عمارات خلفه، كان يجلس بجلبابه، ولحيته البيضـاء ويضـع نظارتيه السميكتين التي تبين من خلفهما، عيناه كأنهما حبتي ترمس، اقترب منه، ازيك يا أســـتاذ عبد البديع، أهلا بيك، انت مين؟ انا عقل يا عم عبد البديع، بلدياتك من ملوي، آه آه آه أهلا بيك.. ازيك وازي جماعة المقدس، أحلى جبنة ضـــاني من البياضـــية، وأحلى "كِشْـكْ" في البراجيل و بشـادة، و ماتنسـاش " بتاو" قلندول؛ زي الرقاق..

أنا دلوقت عايش في مصـــر القديمة، جنب مار جرجس و ســـيدي أبو السعود، ورشتي هناك، ونفسي أعيش لغاية ما أعمل لها تمثال.

. مين هي يا أستاذ؟

الست هدى هانم شعراوي طبعا.. شايف، وأشار إلى قطعة أرض فضاء تطل على ميدان التحرير برأس شـــبه منحرف، وضـــلعاه الآخران على شارعي قصر النيل و شامبليون، منذ أن عرف هذه المنطقة و هو يراها محاطة بسور و تستغلها الشركة المالكة كجراج للسيارات، شايف إيه يا عم عبد البديع؟ هناك أهه جنب العربية الحمرا اللى واقفة دي، كان الســـلم اللى يطلع على المطبخ، كنا نحس بدبيب خفها الفرنســـي، وهي تصـعد إلينا تطمئن على أحوالنا، و تسـأل هو الأكل لسـه عليه كتير؟ ، شـافتني يومها كنت ألهو بثمرة بطاطس وأنحت فيها بالسكين أشكال و تماثيل صـــغيرة، أخذتني من يدي، وقالت لي في " الهول" فين باقي

البطاطس يا عبد البديع؟ الشهادة لله أنا اتخضيت، خفت، هي حصّلت الهانم تشك في إني أكلت البطاطس،أو اخدتها البيت! لكنها ابتسمت، وقالت : اللى انت نحتّـــــها زي كده، بلعت ريقي، وجري على المخزن جبت كرتونة فيها تماثيل بطاطس ناشفة و بعضها أصابه العفن، لكنها رغم ذلك، قالت لي: دي حاجة بديعة تسلم ايديك، لم اصدق نفسي، روّحت بيتنا يومها وانا طاير من الفرح، كمّلِت عليّ في اليوم التاني، انت هاتروح بكره مع ســـعيد أفندي وزارة الداخلية، بس تكون حالق و متهندم، وهناك لقيتهم بيصـــوروني و طلعوا لي جواز ســـفر، ماكنتش فاهم حاجة، حين عدت إليها، و قابلتني في الصـــالون الأوبســـون الفرنســـاوي في الهول اللى قدامك ده على طول، قالت لي: يا عبد البديع؛ أنا قررت أسـفّـــرك إيطاليا تدرس الفن و النحت هناك، لكني رفضـــت، وقلت أدرس هنا ياهانم و اعيش هنا و انحت هنا و اموت هنا..

للمرة الأولى، يعرف من الفنان عبد البديع عبد الحي، أن هذا الجراج مكان قصر هدى شعراوي، أحس بالاختناق، وحسد الأمير سيف الدين، حين جرى بحصانه وسط كل هذه المساحة من المزارع و البساتين، و بكى داخله على هدى شعراوي وطلعت حرب، ورفع عينيه إلى عمارات الخديوية في الأزبكية و الألفي بك وشـــارع عماد الدين، وأعادها إلى الأرض باكيًا على اسماعيل باشا و كل الباشاوات، و لعن سنسفيل أبو

أفلام الأبيض و الأســود، وكلاب الثورة، صــوّرَتهم كأنهم شــياطين و طماعون، ولا همّ لهم سوى شرب الخمور و لعب القمار..

(١٩)

بكـاؤه إلى جوار أمـه، لم يُعِدْ إليهـا الفـدان وربع الفـدان، في حوض الأربعين و السـاحل، أرادت مواسـاته فخنقته أكثر؛ كان نفسـي يتبقي لنا أربع قراريط أو حتى قيراطين، علشـــان تفرح بعروســـك ونفرح بك و بعيـالك، لكن آد الله و آدي حكمته يـا ولدي، هو أراد كده، الله يرحمهـا بقى جدتك، ربنا كبير و ها يرزقك من وســع و تبقى أحســن واحد في البلد كلها..

حكت لـه من قبل؛ كيف كانت الجدة تســلط أباه عليها "انت يا ولدي موظف و ليس لك في الزراعة، ثم أننا نســتأجر أرضــا أخرى ، نزرع فيها ما نحتاجه، وبعدين يا عوض يا ولدي، طول ما الأرض باســم الحرمة ها تتحكم فيك" ، اسـتسـلمت للمقدر و المكتوب، وباعت كل ما ورثته عن أمها، أهلكت الجدة و الأب ثمن الأرض في "حشــو البطن " و "فتح الصـدر"، هكذا كانت تسـمي تبذيرهم في العزومات و المأكل و المشرب، و موالد العذراء في سمالوط و القوصية، بس الشهادة لله طول العمر البيـت ده مـا اتقفـل في وش حـد، أغني نـاس في البلـد، كـانوا يحلفون بـ "كوباية شاي" يشربوها من يد ستك أم عوض.

انت جدك المرحوم مراد! .. ياه.. قد إيه الدنيا دي صـــغيرة خالص يا ولاد!، لما كان جدك بييجي بلدنا يمكن انت ما كنتش اتولدت، يا الله .. ده كان من ٤٠ سنة، انت عمرك كام يا عقل؟

ـ ٣٧ سنة

فعلا ، كنا ساعتها شباب و بنتكلم عن الأسلحة الفاسدة والانجليز واللى راحوا القدس ومارجعوش، عم مراد هو الوحيد اللى قال، انا اللى اعرفه ان الماكينة دي تدور وتفضل شغالة، ماتهوسونيش بكلام ماليش فيه ولا أفهمه خالص يا اولاد الطيبين، لو طاحونة عزيز ماشـــتغلتش مش هاتلاقوا بتاوة تاكلوها، ولو عصـــارة الحاج موســـى فضـــلت واقفة كده، القصـــب بتاع أهاليكم ها يحمض و حتى البهايم مش ها تقبل تاكله، وابقوا دوروا اشحتوا بقى و صلحوا عدد القتل بتاعتكم.

داعبناه وقلنا له ماهو لو انت يا عم مراد فاهم يعنى إيه سـياسـية، كان زمانك اتبرعت بجهدك وقلت أروح اصلح الأسلحة دي

لكنه ضـــربنا فى وجوهنا بكلمات، أفاقت بعضـــنا "انا لما اصـــلح يعنى اعمل اللى ييجى منه الخير ده معنى التصليح، لكن أساعد في قتل أي بني ادم يبقى ده مش تصـــليح ولا خير ، انا بأصـــلح مكن الطحين و عصارات القصب بس اللى أبوك بياكل منها عيش و خالك، سامع يا بن إنصاف، انت وابن منيرة !"

لم يكن هذا العجوز الذي التقاه مصادفة على كافتيريا أمام محطة مصر بالإسكندرية، سوى واحد من عشرات التقاهم في شوارع القاهرة أو في قرى ملوي، معظمهم يذكرون جده بالخير، كلامهم بالتأكيد يُشعره بالزهو و الفرح، لكنه يعود و يقول في نفسه، هكذا اعتاد المصريون الكلام عن موتاهم حتى لو كانوا عكس ما يمتدحونهم به، لكن الرجل لم يكن يمتدح يا عقل، الرجل كان كمن يحتفل بذكرى إفاقته.

أعاده الرجل من شـــروده؛ انا مديون بكتير لعم مراد لولاه لكان زماني صايع أو على الأقل حتة عامل صغير في البلدية، خلاني اتجه لأتعلم تصـــليح مَكَن الخياطة، ولما بطلت بقيت أصـــلح موتورات المياه لري الأراضـي، باختصار اتعلمت اصلح اللى ييجى منه خير لي و لغيري، و من يومها بطلت رطرطة السـياســة، وبيني و بينك قعدت ســنين لا أتكلم إلاّ قليلا، حتى إني في أماكن كثيرة بطلت الكلام من أصله، غير فى حدود الشغل، وبقيت اشتغل وبس، يمكن لأنك ريحة الغالي، علشان كده فضـفضـت واتكلمت معاك، وبعدين انا ماعنديش شـغل، كبرت و عجزت ،ولا عاد فيه موتورات تروى أرض، الخضـــرة اختفت و الأرض بلعتها المباني..

(٢٠)

في مقهى علي بابا، قال فاروق عبد القادر؛ من سكر، وجاره يشرب قهوة مغلية، ليس منا، ، ضحك سعد الدين حسن؛ و القهوة يا أستاذ؛ اسمٌ من أسماء الخمر، ظل صبحي مشرقي يردد؛ إنهم يشربون البيرة كي يسكرون، ونحن نشرب البراندي كي نفيق، قال له عقل فسّر العبارة يا أستاذ، غرّد فاروق برباعية لصلاح جاهين يقول قي نهايتها " فيه ناس من الخمرة ترجع وحوش وناس من الخمرة تصبح بشر"..

لم يجد تفسيرًا يرضيه، لأفاعيل من يعرفهم؛ بعضهم أصدقاء، و آخرون معرفة مقهى أو بار، أحدهم ما إن يشرب الكوب الثالث من زجاجة البيرة ستلا، رغم أنها ماء شعير أو " ميّة نابت" بالنسبة للبراندي القوي، تجده أجرأ من في الكون، و تتلبس بعضهم وجوه غير وجوههم التي يعرف.. أسرّ له أحدهم صبيحة ليلة سُكْرٍ، "إنه يشرب البيرة أو البراندي ليس محبة فيهما أو إدمانا، أنا مش "درانكر" ، أشرب فقط لأنتقم ممن حولي بالكلام الذي لا أجرؤ على توجيهه لهم، ونحن نشرب الشاي سويًّا على مقهى البستان"

على الحجار مطرب، مافيش كلام، موهوب، على يخوض معركتين في نفس واحد، و يُخَيل إلى إنها الأهم و المحرك و الدافع الأول، وهي معركة أبيه ضد من منعوه أو هزموه في شبابه بمنع صوته من الإذاعة

المصـرية، وأبوه كان موهوبًا أيضـا، صـوته عذب جدا، لكن أسـاطين أيامه وموظفيهم منعوه، حتى انزوي الرجل في بيته بإمبابة، لم يستسلم، أنجب علي وأحمد ورأفت، و زرع فيهم محبة هذا المهلك المحيي وهو الفن، علي يكافح معركتين، حتى قبل أن يلتقي بليغ حمدي و يقدمه للناس، معركته الثانية هي وجوده كصـوت بين أقرانه، لو أنا مكان ابراهيم الحجار كنت سـأقول ، "علي انتصـر لي من الزمن و من ولاد الإيه " وأظنه كان يردد ذلك حتى توفاه الله، بكى فاروق عبد القادر ونام على منضـدة "علي بابا"، وبدأ سـعد الدين حسـن يروى مقلب سـمير حلاوة، تتصـور يا عم صـبحي يومها، أنا اعتقدت أن حلاوة هو اللي أنقذني من إيد مباحث وزارة الداخلية، وقلت لك يا صـبحي انت مش صديقي ولا محمد أبو رحمة صديقي ولا عقل ده أعرفه، حلاوة هو بس اللى صديقي!

جدولهم اليومي لا يتغير يأتي من يأتي في السـابعة مسـاءً، أو قبلها حتى ولو بساعات، من يجيء أولاً سيجد فاروق عبد القادر في " ستلا" يناكف في عم حماد البارمان، و بعد انصرافه يواصل مع ابنه سيد، قال سعيد مرجاوي؛ أنا لو كنت بأواظب على شغلي زي مواظبتي ع البار و مقهى البسـتان ، كان زماني رئيس جمهورية، أو رئيس تحرير على الأقل".. فترة وجوده التي تتواصـل ١٥ يومًا من بارٍ إلى آخر يسـميها فاروق " النوّة"، دخل حسن سائق التاكسي الذي يرابض يوميًّا أمام بار ستلا، و يتتبع فاروق أينما ذهب يراقبه كيف يصرف فلوس الجائزة التي

فاز بها في أخريات أيامه، حسن يتلصص عليه من شباك البار يراه يخرج كمية أوراق من فئة المائة دولار، يصرخ داخل نفسه " فُرِجَت النهاردة يا ابو علي" يتفق مع ابراهيم الأعرج زميله السائق على من سيفوز بتوصيل فاروق إلى منية السيرج، قال حلمي صاحب كشك التحف وأوراق البردي، "عيال ولاد كلب ماركة بنزين يا بيه، بيبيعوه كل ليلة لبعضهم، مافيش ضمير يا أستاذ"

حلمي لديه جهاز تسجيل يضعه بالقرب من شباك البار، و يتعمد تشغيل أغنيات حديثة تجعل فاروق يفيق من نُوّته ، يا سي حمار إيه اللي مهببه ده، شغل لنا ليمو الجميل يا جاهل أو فيروز يا مغفل !، حلمي جاهز بالإجابة المعتادة: بس شريط عبد العقل خلص يا عم فاروق، هات نشتري غيره، يخرج فاروق خمسون جنيها، خد بس هات أغنية " النجمة مالت ع القمر" ، لا تمر ٧ دقائق إلا و يعيد حلمي تشغيل أغاني الميكروباص، يصرخ فاروق من داخل البار: ليمو الجميل يا حلمي.. ليمو يا مغفل، و يتكرر الصراخ و الدفع طوال الليلة، خمس دقائق أو عشرة و بقدرة قادر ينتهي الشريط، وفاروق يصرخ و يدفع ثمنًا للشريط الذي اشتراه بما يقارب ثمن جهاز التسجيل!، وفي نهاية الليلة، ما إن يخرج فاروق من البار، يجد حلمي على يمينه، يتصنع الانشغال في ترتيب تحفه المضروبة وأوراق البردي المغشوش، يفاجئه قول فاروق وهو يركب التاكسي، مبسوط كده يا حلموس دفعت لك ثمن عبد الحليم نفسه مش الشريط بس ، و يكتفي بالقول في صوت

خفيض؛ عفريت يا أخي حتى وهو سكران؛ ثم يرفع من طبقة صوته بشكل مصطنع: بس انت باشا بن باشا يا عم فاروق!

في شارع الشريفين بجوار مبني الإذاعة القديمة، سمع صوت أنور السادات يتلو أول بيان للثورة، أشار مهندسو الصوت لـ فهمي عمر أنه على الهواء، وكان ذلك فى حوالي السابعة وثلاث عشرة دقيقة، بادر فهمي عمر بإبلاغ السادات بعودة الإرسال، فسأله: هل يمكن إلقاء البيان؟!قال فهمي عمر، إنه بعد دقيقتين ستنتهي إذاعة تلاوة القرآن الكريم، وسوف يتلوه حديث ديني لمدة عشر دقائق، فقال السادات: "لا لا.. أحاديثكم هي التي خدّرت الناس، وأنا سأذيع البيان بعد القرآن مباشرة"

وعندما كانت تدق ساعة القاهرة، وقتها، معلنة النصف بعد السابعة، تأهّب فهمي عمر لتقديم أنور السادات، بالصفة التي طلبها منه، وهى أنه مندوب القيادة، فقد رفض أن يقدمه باسمه، وبعد إجراء التقديم، قرأ السادات البيان الأول للثورة، فى مستهل نشرة الأخبار.

من يومها يا عقل وأخبار الحكام تتصدر النشرة و الصلوات و المجالس، و إن تذكروا شيئًا يسيرًا يخص الشعب، يأتي دائمًا في نهاية النشرة مقرونًا بأسماء من لهم الفضل، وهم الحكام أيضا! ، باغته فاروق عبد القادر بالسؤال: فين صاحبك ؟! صاحبي مين؟ الأستاذ سالم الصحفي الثلاثي الجهبذ يا ولد، لم يسأله ولم السخرية؟، لكن

فاروق قال؛ ســالم عبده ســالم اســم مزيكا طبعا، فاكر يا صــبحي يا مشرقي، وهو بينصب الفاعل و يرفع المجرور.. يا أخي الإذاعة دي و التليفزيون كشفوا لنا حاجات كتير، وللأسف شعبنا الطيب بيتْغَر في أي بدلة و كرافتة

رآه خـارجًـا من بوابـة الإذاعـة العتيقـة، في أبهـة شـــاب من حقبـة الأربعينيات، يحتضــن عوده و يبكي " عزيز على القلب اتمنيته، توعده بقرب وصالك "

همســت ســماح الغائبة في حضــنه: يا عقل انت أول من يعرف إنني أعشـق الأفلام القديمة، ولكن مهما كان حبنا، فالخسـارة أكبر بكتير من النفع، لو صـممنا على الارتباط، من ذا الذي يصـدق أن أباك الطيب و أمك محبة لكل الناس ليس لهما ذنب فيما حدث؟! سـيقتلونهما، ولو كما تقول "ان ده مجتمع ورق، ومش مشـكلة انك تغيّر الرخصـة، فما ذنبهما يتحملان ما يعتبره الناس عارًا، ولا يد لهما في أي شيء..

(٢١)

ســـأله حامد العويضـــي ، واقف ليه كده وحدك في عز القيّالة يا عقل! تعال نشوف عمك جودة خليفة على قهوة في التوفيقية..

السكة التي كان يعرفها حول مبنى جريدة الأهرام لم يكن سوى الطريق الذي حفظه إليها من ميدان رمســـيس مرورًا بقســـم الأزبكية و محكمة الجلاء، و على امتداد شـــارع الجلاء كان يعرف الطريق إلى ميدان التحرير، ومن ثم ينطلق إلى مربع وسط البلد، مقهى البستان و الأتيليه ومقهى الحرية، ثم في مرحلة لاحقة عرف الجريون و ستلا، كان يبكي كثيرًا و هو يشرب زجاجتين أو ثلاثة من البيرة، و يصرخ قائلاً لنفسه، حين يحاسبه سيد حماد: المجد لك يا أبي، هذا نصف راتبك الشهري الذي كنت تعولنا به، و لا أدري لِمَ كنت سعيدًا هكذا؟!، يا لي من أناني حقير! اعذريني يا أمي، ابنك مضـــطرٌ حتى لا يعايرني أحدهم إنني عالة عليهم، أو إنهم يعزمونني و لا أرد عزوماتهم،

في قهوة الخُرْس وجدناه جالسًـــا، نهض ضـــاحكًا، لأول مرة أرى رجلاً فرِحًا من قلبه بقدوم آخرين عليه ، ومين بســـلامته ده كمان؟ قالها ضاحكًا، دار في ذهن عقل ساعتها أن الرجل يستمتع بخلوته بعيدًا عن مقاهي المثقفين، يلتقي هنا من يحبهم فقط، خاف من تخوّفه منه، وما إن نطق حامد، ده عقل صاحبنا، وصعيدي زيي، بس على خفيف، ده

من المنيا!، فوجئ عقل بهجوم جودة عليه تقبيلاً ، يخرب بيتك يا ريحة الغاليين، المنيا يعني طه حسين يا حامد ..عارف يعني إيه طه حسين بالنسبة لي أنا تحديدًا؟!، لولاه كان زماني ورا الجاموسة، ويا عالِم كنت ها ألاقي جاموسة أمشي وراها ولا كنت ها ألاقي غيطان أرعاها فيها ؟! اسمع ياواد يا عقل يا اهبل انت، طه حسين ده هوه اللي خلاني أكَمّل تعليمي بعد ما خرّجوني من المدرسة بسبب المصاريف، كان عمري ١١ سنة، وأهلي غلابة قوي، و لما طه حسين قال "التعليم حق كل مواطن كالماء والهواء"، أمي كتبت له، هي طبعا ما كتبتش، اللى كتب واحد أفندي في الجمعية الزراعية ، كتب لها، ما قالته، "ابني جودة ذنبه في رقبتكم يا شيخ طه يا وزير المعارف العمومية، رجّعوه المدرسة دام فضلكم"، وكأنها ندهة نبية، جاء لها الرد في خطاب " مسوجر" بعد أسبوعين، قال لها العميد البني آدم بجد، في رسالته " يا أمي اذهبي إلى حضرة مدير المعارف بطنطا، وهو سيقوم تجاهك و تجاه ابنك جودة بكل ما تطلبين"، طه حسين وأمي بقدر ما أحسنا إليّ ، لكنهما.. وربك يسامح الاثنين، بدون قصدٍ منهما طبعًا آذياني كثيرًا، لما شفت خِلَقْ المتثقفين دول، خلينا من سيرتهم، أما أنا سمعت لك امبارح ياواد يا حامد شريط لياسين التهامي، حاجة آخر عنب، خمرية سيدك بن الفارض يا ولد، أخيرًا وجد عقل مشتركًا ما، ربما يؤهله للاقتراب أكثر –إضافة إلى طه حسين– لقلب عم جودة، فألقى بضعَ أبياتٍ من الخمرية:

شَرِبْنَا على ذِكْرِ الحبيبِ مُدامَةً سَكِرْنَا بها من قبل أن يُخلق الكَرْمُ

لها البدرُ كأسٌ وهيَ شمسٌ يُدِيرُهَا هلالٌ وكم يبدو إذا مُزِجَتْ نَجم

و لولا شذَاها ما اهتدَيتُ لِحانِها ولولا سَناها ما تصَوّرها الوَهْمُ

الله الله.. الله يخرب بيتك، عليّ النعمة انت واد عِلْق قوي.. إيه الحلاوة دي ، الواد القبطي حافظها يا حامد ..حافظها.. شوف شوف، يخرب بيتك هات بوسة هات، قال عقل، يا عم جودة لم أعرف الشعر الصوفي إلاّ من إنشاد التهامي وقبله طبعا أستاذه ومعلمه أحمد التوني، كنا فى الصف الثالث الثانوي، نكتب ما نظنه شعرًا ، ومن ينتقدنا، نكرهه كثيرًا، كان الواحد مثلي يظن نفسه أحمد شوقي وإن تواضع يكون نزار قبّاني، هذه رؤى صبية لم يروا سوى أنفسهم بعد، و عيني محبوبة، تقف على سطوح منزل مجاور، أو التقاها مصادفة في قطار أو أتوبيس، نتوهم الحب و باطنه أشواق مكبوتة لملامسة ذلك المحرّم على أمثالنا أبناء الفقراء أو حتى الذين كانوا ينتمون منا إلى الطبقة الوسطى، جسد الأنثى، ذلك الحلم الذي لا يزال يترقرق كسراب في طرقات من تجاوزوا الثلاثين من أعمارهم مثلي، نهيم حبًا آه، و نقضي الليالي ساهرين في كتابة لقاءات لم تتم، و لمسات لم تُخلق لها أصابع بعد، نعيش حياتنا كشعراء؛ وإن كنا ليسوا بشعراء، و نعيش بقيتها، مخترعين زهدًا ممحونًا، ليس زهد المقتدرين؛ بل رهبنة الهاربين من مشكلات حياتية أو هزائم عاطفية..

ـ لا لا بالراحة عليّ شوية يا عقل أومّال!، من تاني الحكاية الأخيرة دي تاني بس بالراحة

ضـــحك حامد كثيرا، وقال؛ يا عم جودة الصـــعايدة وانت عارفهم يا إما حُكَمَا يا إما لُؤمَا

ـــ أنا ما يهمنيش يا بابا مش ها تفرق كتير الحكمة و اللؤم في التحايل ع الحياة، متهيأ لي ســـكة واحدة؛ بس المشـــي فيها هو اللى بيفرق، ما علينا قول ياواد يا عقل قول، احك لي حكاية زهد المقتدرين دي تاني

لم نكن مقتنعين بإعراضنا عن أفعال، كنا نراها ضرورة حياتية لأرواحنا و أجســـادنا، ويراها الآن من ارتكبوها قبلنا– ولكنهم الآن في موقع الحكماء، لا لشـيء سوى أنهم من كبار السـن– إنها رذيلة و قلة أدب، والأنكى أن مصـير مرتكبها،النفي من المجتمع، وهو أو هي في الآخرة من الخاســرين، ما باليد حيلة، ليس أمامنا ســوى أن نُملي على عقولنا رغما عن احتراق أرواحنا؛ أن الأنثى أي أنثى، مصـدرٌ للشـر، بل هي الشـــر ذاته، وندعم حيلتنا بأقاويل،من عينة، أليســـت هي من أخرجت أبانا آدم من الجنة؟ ، أليست هي من يُفسد صلاة الناسك، إذا ما مرّت أمام قلايته هي والكلب الأسود أو الحمار؟!

ـــ لا وحياة أمك يا شيخ لو غالية عليك، ما قلنا بالراحة، ده انت شكلك عامل دماغ جامدة

منذ ٢٣ عامًا، في مندرة بيت هاشم النمس، قال لهم فتحي علي رضوان، الليلة دي فيه منشد مافيش قبله ولا بعده في تونا الجبل، اسمه ياسين التهامي، قال المرحوم محمد هاشم؛ وهو ها يقول إيه زيادة عن كروان المديح الشيخ أحمد التوني؟!، لا لا ده كلام تاني يا ابو خالته؛ الموضوع باختصار ان ياسين ده شاب من الحواتكة، و بينشد قصايد سيدك بن الفارض و الحلاج وبن عربي، عقل بحكم دراسته للفلسفة ومحبته للشعر، كان يعرف بعض قصائد لهم، لكنه استشاط غضبًا حين قال صديقه جمال هاشم، مشاكسًا؛ طبعا الخواجة مالهوش في الحاجات دي!، وحياة أمك يا جمال، أرجوك لا تنطق كلمة خواجة دي تاني و لاتصفني بها أرجوك، أنا مصري أكتر من أي حد هنا، قال سيد فهمي؛ صدقت يا خواجة فعلاً.. ضحكوا جميعاً، ثم انصرفوا، كلٌ إلى بيته، منهم من سيدبّر تمويل الرحلة، و من سيأخذ حمّامًا و يكوي جلبابه

شمس "أم تسعة"؛ التي ليس كمثلها شمس، هربت وراء أشجار جنينة الخواجة شاكر جندي، جاء بعضهم إلى "نصبة" علي ابو سيد، يشربون الشاي ويدخنون الجوزة و سيرة نساوين البلد، علي ابو سيد ينتظر دائمًا من ينكشه، ولا أحد يصلح لهذه المهمة سوى جمال ابو هاشم، يجرجره بلطافة في الكلام شيئًا فشيئًا، ويكمل معه في الجرجرة عيسى راتب،

لكن خلاف ابو الحاج صـــديق من كثرة صـــراحته، قال عنه شـــقيقه المرحوم جاب الله، أخويا مدبّ وأنا عارفه، بس طيب، يكيل لعلي ابو ســيد الاتهامات الغليظة، وعلي لا يملك من أمره شــيئًا، ماشـــي يا بو الحاج، انت صــح، لكن انا بالله عليك كنت ها اجيب للتســع عيال دول أكل وشرب منين؟

جاء ابراهيم ابو خلف الله من عزبة عدلي بسـيارته " التويوتا" الربع نقل، و ركبوا وانطلق بهم ابن خلف الله إلى تونا الجبل، الشـيخ جمال العربي يعرف كل شـيء، لا توجد قرية أو عزبة مررنا عليها، إلاّ وحكى لنا عن أثريائها، وشـراميطها، ولصـوصـها ودراويشـها وأوليائها، وقتالين القتلى فيها، وده كان دير للجماعة المســيحيين، أخده الحاكم بأمر الله، وعمله مسجد حتى اسمه لغاية لحظتنا دي جامع النصارى، وفيه حجر مجوف محفور زى الطشــت الكبير، الجدود قالوا إنهم كانوا بيغطســوا فيه عيال النصارى، ودلوقت بتنزله النساوين (نصارى ومسلمين) المحرومة من الخِلْـــــفة، هي أسـباب ربك بيسـببها لكن الفعل الأول والأخير له هو سبحانه..

أهوى رشأً رشيِّقِ القدِّ حلي .. قد حَكّمَهُ الغَرامُ والوَجدُ عَلَيّ

إنْ قُلتُ: خُذِ الرّوحَ!يقُلْ لي:عَجباً!.. ألرُّوحِ لنا فهاتِ من عندكَ شيّا

لم نســـمع ســـوى هذين البيتين، من ياســـين و هو يكررهما منتشـــيًا بتطوحات المئات أمامه، و فجأة تعطلت ماكينة الكهرباء، قال جمال العربي الليلة دي فيها حد نجس، ابو هاشـم لا ينتظر، طبعا هو انت يا بو العربي، انت لسه ع الكوبري واقف تحكي مع فاطنة، و طول الوقت بتعصّر في ايديها، كاد المزاح الساخن أن ينقلب إلى الجد، خاصة حين سمع عبد الكريم اسم أمه، تدخل الأستاذ فتحي قائلا، يا جماعة عيب احنا كبار، وجايين نســمع حاجات يمكن تغيرنا شــوية و تخلي أرواحنا حلوة..

سـنوات طويلة، من نهايات السـبعينيات وحتى بداية الألفية الثانية؛ كنا نتتبع أخبار القرى التي ستقيم لياليها، بشرط أن يكون المنشد فيها واحد من اثنين، إما ياســـين التهامي أو أحمد التوني، وكما نحن نتجمع و نقضـــي ليلتنا مع بن الفارض و الحلاج وبن عربي و بعض من رابعة العدوية، عمامة ياســـين البيضـــاء و طريقة قلوظتها، أغرت شـــباب الفلاحين و التجار بتقليدها، وصرنا نري في قريتنا وحدها من المتشبهين بياسين، العشرات، قال عقل؛ هذا البلد فيه حاجة عجيبة، لو لم يستطع الوصول لجوهر الموضوع توسل بالشكل، ولا يعني عدم وصوله لجوهر الأشياء أنه غير مدرك لها..

فجأة صـــــرخ جودة خليفة؛ بس.. بس يا بابا، وحياة أمك انت ما تعرف عن ياسـين التهامي أي حاجة، ابقى فكّرني بس في الصـيف وأنا أوريك ياسين على أصله بقى.

(٢٢)

لم يكن بإمكانها الغناء أبداً، لا لأنها لا تجيده، بل لأنه ضمن قائمة من المحرمات على معظم نساء البلد، بالخصوص عليها ونساء العائلة، أولها عار الاستحمام في النيل، و ثانيها الغناء و الرقص، أمه تتحايل على ذلك كله وتغني داخلها، و دائما ما تفضحها دموعها، وهي تضحك، بمناسبة أو دون، تحايلت أكثر واستبدلت العديد بالغناء الفرِح، يطرب أبو عقل أكثر بصوتها وهى تعدد، و يضحك حينا، لكنه يبكي أكثر حين تكون العدودة عن الأم، ولا يستطيع أن يوقفها عن العديد، أبو عقل الذي حرم هذه المرأة الطيبة من أرضها التي ورثتها عن أمها " فرنسا بنت حنا أبو صليب" ، هكذا كانت تقول له أم صديقه ربيع أحمد خروب، جارة أمه أيام طفولتهما؛ أمك غالية يا واد يا عقل دي بنت فرنسا بنت حنا ابو صليب، أنضف ناس وأغنى ناس فيك يا قلندول من قديم الأزل ، ما تزعلهاش ياواد، كفاية ستك وابوك والزمن زعلوها بكفاية، باعوا أرضها اولاد الكلب ..وتضحك أم ربيع وتضيف، لكن الأصيل أصيل برضه، هي استحملت علشان تربيكم انت واخوك و مازعلتش خالص، كفاية كل ما اشوفها ألاقيها راضية و نفسها حلوة وفرحانة بيكم، و بلعت زعلها في صدرها يا كبدي ..أمانة تسلّم عليها يا واد يا عقل، يضحك ربيع و يقول لأمه، على كده يا أمي انت كنت زميلتها في الميرديدبيه، ونضحك.

أبي الشــقي الطيب، حين يريد أن يصــرفها عن الترانيم، يطلب منها أن ترنّم ترنيمة (وسط البحر الهايج وانا ساير .. تلاطمني أمواجه تجعلني حاير، ويســوع باين تركني ولا عَدْت أشــوفه من ضــعف إيماني) ما إن تبدأ فيها، تتذكر أنها كانت الترنيمة الوحيدة التي كان يجيدها فيليب، ويرددها أينما حلّ، فيليب الذي مات وحيدًا، في غرفة أعلى دكان عمه فخري حنـا، كثيرًا مـا حكى الجيران وأهل البلد عن فيليـب الـذي كـان يتعشــى في ملوي و يفطر في القاهرة، أم عقل ما إن تسـمع اسـم فيليب أو تتذكره ، تقلب الترانيم أو الأغاني الســـرية إلى عدودات مطوّلة عن الشاب الذي مات وحيدًا، رغم أنه توفي فوق الستين!

كانوا ينصــحونه كثيرًا، كفاية بيع في الأرض يا فيليب، الطين ده كنز يا بني ينفعك وانت لا متجوز ولا فيه حد يعولك ما يعولك إلا قرشـــك، لا يرد فيليب ســوى بجملة وحيدة، حفظها أهل البلد عنه " الطين في الترع و المصارف ، واللي عايز يروح يشيل و يتطيّن"!

أم أحلام زوجـة محمود القمّـاش، كـانـت تراه في أحلامهـا، قـالوا أنهـا أحبته فقط، من ملابســـه، ورائحة عطوره، فيليب كان يتحمم بزجاجتي كولونيا، في زمن كان أثرى أثرياء المركز يتحممون و يغسـلون وجوههم بصابون" ج ١١"

روايات تقول؛ أصــابه الجنون، حين هدده أهلها بالقتل، وحرموه الارتباط بــ "أم أحلام"، وروايات أخرى تؤكد أنه ادعى الجنون ليهرب من هزيمته

إهدار الأراضـــي التي باعها، الوحيدة التي كانت تفهمه هي أم عقل، لكن لا هي ولا أحد اســتطاعوا حتى الآن تفســير اتجاهه للترانيم، مع نفسـه أولاً، حتى ظنوه أنه سـيتجه إلى الدير ليصـير راهبًا، الوحيدة التي تعرف أسـراره هي أمك يا عقل، تذكّر ما قالته جارتهم أم حسـن؛ أمك يا عقل، لا نعرف إن كانت هي التي جنت عليه، أو هي اللي خدمته، هي التي أعادته من الدير، بعد أن أرشـــدت مخبر المباحث عن مكانـه، جاءوا به يومها مقيّدًا، وعاد إلينا بعد ٣ شــهور عســكري جيش معتبر، وجهه كان كالبطاطا المشوية، سألناه، راح فين جسمك المليان، ووجهك اللى زي قرص الشـمس يا فيليب؟!، قال؛ كله فدا الوطن، قضــى سـبع ســـنوات في الجهادية، لم تمض أيام على إنهائه الخدمة الوطنية، حتى عاود الكرّة مرة أخرى إلى الدير، قبلوه في البداية، تحت تأثير الشـــهادة التي حملها من أب اعترافه القمص يوحنا عبد الله، أمضي أربعين يومًا، صـــلاة وصـــوم و ترانيم بالليل، و عمل بالنهار، وفي نهاية الأربعين يومًا، ســأله أحد الرهبان القدامى، أي المأكولات تحب يا فيليب؟، أجاب : كل ما تنبت الأرض بفعل عمل يديَّ، انفرجت أســـارير الراهب العجوز، واطمأن فيليب أنه عبر أول عتبة في الامتحان، جاءه بالسـؤال الثاني، أي إخوتك عزيز عليك، قبل أن ينهي الســؤال، صـــرخ عقل و بكى وهو يقول: أختي أم عقل وأخويا فرج و جعفر وإفرايم وأختي موزي، وكأن الراهب جاءه بالصـــاعقة، لكن هناك امرأة أخرى يا فيليب، الحالة وتوهماتها أسكنت ذهن فيليب، أنه راهب عجوز ويعرف عنه كل شـيء، من الأفضل لي و لخلاص روحي أن أعترف، هكذا قال في نفسه؛ نعم

نعم يا سـيدنا، سـعاد أم أحلام زوجة القمّاش، قالها بصـوت خفيض معجونة بدموعه..

ومن سـاعتها، يا أختي يا أم عقل؛ دموعي لم تجف من دير أبو فانا حتى قلندول، غسـلت له وجهه، وقالت؛ ياخويا ربنا هنا وهناك، واللي عايز يعبده، يقدر يتكلم معه في أي مكان، حتى بدون ماتتكلم، هو عارف ودريان بكل شـيء، عايز تبقى معاه على طول رنّـم، واقرا المزامير، في أي وقت..

عالجت أخته أم عقل، قدميه، من التهابات وانتفاخات ألمت بها جراء سـيره أكثر من أربعين كيلومترا، مابين دير أبو فانا و البلد، أول بيت ذهب إليه، كان بيتها، اسـمها الذي نطقه هو الذي حرمه نعمة الرهبنة، وقف أمام دكانها الملاصق لبيتها، ها تفضلي طول عمرك، ذنبي اللذيذ الذي يطاردني يا سـعاد، ابتسـامة الود لم تختف من وجهه، وقبل أن تكمل "وحشـتني يا فيليب"، بادرها دامعًا؛ أنت حواء التي تسـببت في طرد آدم من الجنة، ليس لديّ القدرة لأقول، إنك أخت ابليس أو الحية التي وسوست لـ " حواء"، أنت ذنبي الجميل؛ الذي كلما أمعنت في ارتكابه؛ أتطهر من كل ذنوب الدنيا!

من يومها، وعقل يعُضّ مخدته ويبكي؛ قضـيتِ عمرك تُعدّدى يا أمى وانت تشيعين موتاك بالغناء الحزين، وتتذكرينهم أيضا بالعدّودات ذاتها، وانت لا أحد يُعدّدُ عليك ، انا ابنك الذى أسـميتني زرعة عمرك، أحاول

ولا أســتطيع، أم عقل لم تلتق أم صــفوت زكريا أبدا، لكن، كأنها اتفقت معها في إفناء ذاتها و حرمان نفســـها حتى من الابتســـامة في غياب ابنها، رغم اختلاف الابنين، شــتان مابين عقل،هذا المتمرد الفوضـــوي الغضوب حتى على نفسه، وبين صفوت الابن البريء، المرتب كحديقة فرح، بعد وفاة أمه بثلاث ســـنوات قال له صـــفوت، معلهش يا عقل مالحقتش أعزيك، وفي السنة السابعة لحقت بها أم صفوت، بكى عقل على ما كتبه صفوت في نعي أمه، وأرسل له رسالة عكس حالته تماما" هما الأبرار ها تفيدهم بإيه دموعنا؟، خليهم هما يبكوا علينا احنا ، أو على طريقتك أنت يا صفوت ها يصلوا لنا، يمكن تشملنا محبته لهم"

(٢٣)

ـ أنت أصلا من المنيا ومن "ملاوي" إيه جابك هنا؟

الموقف يقتضـــي الضـــحك، لكن ملامح الحزن تغلبت على وجهه، نضحت روحه بمأساته الحقيقية، كاد يبكي؛ لا جزعًا من الضابط، بل حزنًا على مدير النيابة، كان عقل لا يزال مســكونًا خياله بذلك النص الأدبي البديع الذي كتبه " وكيل نيابة مصر محمد نور" في مذكرته عن تحقيقاته مع طه حسين، فيما اتهمه به الأزهريون حول كتاب " الشعر الجاهلي"، ظن أن كل وكلاء النيابة يجب أن يكونوا محمد نور، قبطي وصـعيدي مسـتني منك إيه؛ قال مخاطبًا ظله المربوط إلى شـخص سوداني، في اللحظة التي أخبره فيها أن اسمه "السر" من أم درمان، وتهمته بيع أعشاب في العتبة، ارتعشت روحه، آخرتها ياربي، يكلبشوك يا عقل مع واحد اسمه وحده لغز وتهمته لغز أصعب!

قال بصوت –ظنه مرتفعاً، و صداه يجلجل غرفة النيابة– يا سعادة النائب اسمها ملّـــوي، ملاوي دي دولة تانية خالص، وانا ما اعرفش "السر" ده !، ضحك وكيل النيابة، ولم يضحك الضابط، الذي صرخ فيه:ارفع صوتك يا بني ارفع صوتك، سيادة النائب حضرتك تعرف محمد بك نور وكيل نيابة مصر؟! أظنك لا تعرفه

قال، أنا لا أعترف بالواسطة، و مع ذلك ها اصرفك، اتفضل خده من هنا، و لو لم يكن على ذمة قضـــايا أخرى أو مطلوب لديكم في أي شيء اصرفه

كادت قدمه الثانية تعبر عتبة باب قســم الموســكي، حتى أوقفها نداء صــارخ باســمه ، يا عقل يا زول يا بتاع ملاوي يازول، وجده " الســر" ومعه شخص سوداني آخر يكبرهما قليلا، اسمه عبد الرحيم جارانج من جنوب الســودان، رغم عدم تفهمه للكثير من مفردات " الســر" أو لكنته المضـــغومة، إلا أنه كان المترجم بينه و بين جارانج، مرة تلو الأخرى من لقاءاتهما، بدأ يتفهم جارانج و لماذا اســـمه عبد الرحيم و جارانج.. الاتنين؟! قال له: لو لم أنتحل اسم عبد الرحيم لما استطعت الخروج من شمال السودان ولا وصلت إلى القاهرة، لم يفهم شيئًا، قال له " السر" الأســماء يا صــديقي أحيانا تكون تأشــيرة ســحرية للمرور من بوابات الجهل و الغطرســة، وأحيانا كثيرة زنزانة، أو موت، جورجينا قتلوها وهم ينفذون فيها حكم الثمانين جلدة، ماتت في الجلدة الواحدة و الخمســين، صـــلبة و قوية، غيرها رجال ماتوا بعد الجلدة الســـابعة و الأربعين، جورجينا كان اســـمها الأصـــلي فاطمة وهي اختارت جورجينا و زادت الطين بلّة فارتدت بنطلون جينز، لذلك جلدوها، فلا تلمني صديقي حين أضحك فتهمة بيع أعشاب، هي فسحة بسيطة، حتى لو سجنوني فيها!

اثنان وأربعون شـهرًا، قضـيناها في سـجون الشـمال، قال لي الشـيخ الدخول ليس كمثل الخروج، جارانج ردّ: الدخول بركة يا شيخ و الخروج من عمل الشـيطان، صـرخ الشـيخ فرحًا: قل هذا الكلام الطيب لابن الحسن، الذي تربّي في البركة كلها، والده شيخ و جده شيخ و من أسرة شيوخ كبار، نسبه ممتد إلى البيت الشريف، قل له يا عبد الرحيم بارك الله فيك؛ لماذا يترك كل هذه البركة و يتبع الخواجات؟! اللى يبيع دينه و دين أجداده ما يساوي فلس، يرضيك يا ولدي يبقى صليبي و يبيع دينه؟! قال جارانج، والله ما يرضيني، بس كيف تنظر لي يا شيخ، وانت تعطيني العشرين ألف دولار هسّه؟!

كاد "السر" أن يضيع في إغماءة نتيجة الضحك المتواصل، وهو يروى ما حدث، اغرورقت عيناه بالدموع، حاول تهدئة نفسه قائلاً؛ والله سلامات يا شيخ جارانج، كنت تجاري الشيخ على حسابي، فزع جارانج صارخاً، يازول كنت أجاريه على حساب نفسي ولولاي لكنت أنت أيضا، فى عداد المقتولين جلدًا أو المصلوبين الآن !

ضحك السر؛ ولولا العشرين ألف دولار ما كنا عشنا بالقاهرة أو غيرها، يكفيك يا جارانج أنك تعول عشرات العائلات السودانية سواء جنوبيين أو شماليين، كله في ميزان حسناتك يا شيخ جارانج.. ضحكا واحتضنا بعضهما ثم انهارا في نوبة بكاء، بكى عقل لا يدرى إن كان تأثرا بالمشهد أو تعاطفا مع حكاياتهما!

صمت الشيخ،لفترة، لم ينقذه من السؤال سوى مجموعة من أبناء القبيلة الذين جاءوا مباركين للشـــيخ جارانج (...) في دقيقة أو اثنتين، ثم يوقّرون بقية وقت زيارتهم ليوبخونني أنا، قال السر، وأضاف ضاحكًا، رأيت أيامها مشاهد لم تنتجها السينما العالمية بعد، ولن يقوى أي ممثل على أدائها، أو من الأصل لن يجود خيال أي سيناريست بها! تخيل يازول، شـــباب من قبيلتي، يازول أعرفهم أكثر مما أعرف نفســـي، وشـــرفك يا جارانج، واحد منهم كان ينام مع أخته، يا عباااد الله! وأمه تعلم ذلك، كان من ضـــمنهم، وقال لي، يا زول أنت ارتكبت الفاحشـــة وحقنا نقتلك، ربنا أمرنا بذلك!

على مقهى العســـكري، قال له عمر الســـوداني، انت تروح إلى هذا العنوان يازول، من أول دهب تســـأل على " الأخ بكري" أو " برازر بكري" رجل سوداني في السابعة و الأربعين، له في كل ميناء طفل، قد لا يشبهه كثيرًا، لكنه يحب أن يسمّي نفسه أبو العالم ، تزوج من معظم الجنســـيات، ونام مع نســـاء بعدد شـــعر رأســـه، قليلات منهن جدًا اشـــتهيتهن، معظمهن تراهنّ عليّ، أو كان طموحهن في إنجاب طفل برونزي من أبناء الخليقة الأولى، بكري البحار أو برازر، كما الرهبان لا يأكل إلاّ من صـــنع يديه، لا يحب الهدايا ولا الإكراميات، لكنه لا يتردد عن رهن ســرواله ليلبي نداء محتاج، عشـيقته النرويجية حاولت إغراءه ببيت في سـويسـرا و يخت في البندقية، قال لها، عطبرة أحب إلى قلبي من الجنة، تأتين وتعيشـين كما أعيش أنا و جماعتي، رفضـت الأوربية

الشـروط ليس رفضًـا للحياة هناك لأنها من جماعة "فيمنيسـت" لا تحب أن يتشرط عليها رجل، وشرقي كمان؟!

ينام بكري على ظهره من الضـــحك، اســـتبدلتني بنت المجنونة بامرأة تنزانية، و تعيشــان الآن في تبات، و لكن لا تخلفان صــبيان ولا بنات، يتمرغ بكرى في رمل دهب الأصـفر الناعم، وتدمع عيناه من الضـحك، يضـحك "السر" و"عوض الله" ، بينما يبتسم "عقل" ابتسـامة خفيفةً، ربما أنه يتحرج باعتباره ضيفًا ولا يعرف كثيرا من تقاليدهم

ترك الســـر و تاج ، بعد أن اطمأن على عوض الله، وأخبره برازر، أنه ذهب إلى أقارب له في نويبع، ســـار على شـــاطئ "العصـــلة"، رآهن كومات من اللحوم الحمراء المقمعة المقشـــورة بفعل الشـــمس مع البيرة المدلوقة عليها، شـاطئ العصـلة لا يشـبه أبدا الموردة النيلية التي كانت تغســـل عليهـا بنـات قلنـدول، قريتـه الأولى ورائحـة عمره، الأواني و الملابس، ولا عيناه مهما كانت حدتها تسـتطيع سـوى رؤية خُن ورك " مديحة" زوجة زكي العطّار من بعيد، أو ســـاقي "نادية" بنت شـــوقي الطحّان في المياه، كم مرة تحجّج بالسـباحة بالقرب منهن ليرى أكثر، و يُخزّن داخله مشـــاهدَ تســـاعده ليلاً، أو حين ينفرد بنفســـه في الغرفة البحرية من بيتهم، هاهن لا يغطيهن ســـوى شـــريط خفيف يتوســـط الوركين، لا يســـتطيع منع الزغب الذهبي النافر فوق قط صـــغير يكمن بينهما، تحسس أشياءه لم يجدها، النجدة يا الله!

كثيرا ما بحثت عما يستر بروز جلبابك أمام أهل شارعكم فجأة، حين كنت تري نصف ساق حتى لو كانت ملطخةً بالطين، أما أقوى أنواع الفياجرا، فكانت مجرد رؤيته لوجه مديحة خاصةً حين يكون مغبرًا بدقيق الطحين، في شهر يونيو، طافحًا بحُمرةٍ تقود إلى ينابيع الحياة الأولى، حين ينجح في استحضارها داخل غرفته ويجلس في مواجهتها فقط على سرير أمه، كان يشعر أنها حواء الأصلية وهو آدم، ولا أحد غيرهما على سطح المسكونة، حضورها فقط متعة وفوران جنسي تام دونما أن يحدث، لا يدانيها سوى شربة ماء في صحراء دهب وطور سيناء، من حقك يا موسي أن تتشغل عن يهوه المتجلي بتلك المصرية التي آواك والدها، المصريون لم ينتظروا أسفل الجبل، بل صعدوا إليه؛ من سيظهر ليس غريبًا عنهم، و لن يخروا مفزوعين، بل محبة واشتياقًا لفكرة صنعوها ذات يوم، وصدقوها، حين نجحوا أن يجعلوا العالم يصدقها !

وصل الكشك الخشبي الذي يقيم به مع عوض السوداني، قلب بضعة كراتين مكومة على بعضها، وجد الكيس، بانجو من الأصلي لدرجة أنه حين دخنه للمرة الأولى ولم يكن يعرفه، ظنه حشيشًا أفغانيًّا، تعلم من السوداني أسهل طريقة للف سيجارة محشوة، جلس أمام الكشك الخشبي، ليس أمامه سوى نصف متر من رمال دهب الصفراء تداعبها مويجات تكاسلت عن الرجوع إلى عمق خليج العقبة وفضّلت مداعبة سيقان المصريات و المصريين و ضيوفهم، قال لنفسه، هذا الشعر هو الذي

أفسد عقولكم، مداعبة إيه وسيقان إيه و مصريات إيه؟! مش شايف كل اللى قدامك إسـرائيليات واللى مش اسـرائيلي يهودى أوروبي؟! وبعدين انت مش عنصري كده يا عقل !، ما علينا، لف خمسة سجائر وضعها بجانبه وأعاد كيس البانجو إلى مكانه، يابن الإيه يا عوض!، لم أكن أتوقع أن تكون بن حياة هكذا، إصـرارك على الصـلاة رغم أنك أحيانا تتجه إلى الغرب، وحين لامك أحدهم قلت له؛ إنه موجود في كل مكان، وجلبابك القصـير رغم أنك لسـت ملتحياً، أخافاني منك، لكنك طلعت نمرة جامدة، بانجو يا عوض بانجو! يا سـيد عقل لا تكن حنبليًّا، هذه أعشـاب أنبتها الله، تدري مين أول من اكتشـفها؟! لا ..وحياتك بالنسـبة لي أنت أول من اكتشـفها ، طول عمري باسـمع في بلدنا و المحافظات المجاورة عن الحشيش والأفيون، دي أول مرة أسمع فيها وأشوف الدخان الأخضـر ده !، هادا يسـمونه الأجانب ماريجوانا، والأمريكان تحديدا ينطقونها ماريوانا، أقول ليك أنا: الجمال هي اللى اكتشـفته، الجمال يا عوض؟ أيوه الإبل هي اللى كشـفته، حكى لي بدوي في الطور، إنه من ٢٧ سنة ترك جماله ترعى، نحن الآن في العام ١٩٨٩ يعنى تقريبا عام ١٩٧٢ ، وفجأة وجد الجمل الشـرس يسـير مترنحًا، و توقف عن هياجه المعهود حين يجوع أو يعطش أو حين يضـربه الراعي، مرة وراء الثانية، اكتشـف البدوي أن هذا النبات الأخضـر وراء هدوء جمله، جرّبه مع أصـحابه و أبناء قبيلته، أشـعلوا النيران في كومة مفصـصـة منه، استطابوا في البدء رائحته، و ارتمى بعضـهم أمام الخيمة ضـاحكًا، حتى

شـيخ القبيلة، خرج عن حالته و أخذ يغني ويرقص ممسـكاً عصًـا رفيعة قائلاً؛ هذا سيفي سيف العروبة لا يزل ..

مـاريوانـا ..مـاريوانـا ..واااااااااااو، هجمت عليـه في فرحـة تتســـاوى وعثورها على أمها الغائبة منذ عشـــرين عامًا، الجالس على الرمل رأى البحر يولد كهرم بين ساقين ورديين، تسلقت عيناه هرم البحر، لأول مرة يرى السماء مشعرة، وللبحر رائحة غير اليود، للبحر رائحة أنثى، جلست إلى جواره، أووووه مـاي فريند، يو آر ايجبتيان؟!، أيوه يا روح أمك خير، فاجأته بالرد؛ روخ أمي خلوة خلوة هههههه ، قالت له اســـمي زوهار، يعني سـهير بالمصري عندكم، يابن الإيه يا عوض يا سوداني ، البانجو خلى البنت الخواجاية تنطق مصري!

بعد السـيجارة الثالثة جردته من ملابســه، وســاقته كحواء الأولى داخل الكشـك، صـرخ: لا تفاح ولا تين ولا زيتون يا الله، هذه فراولة وأناناس و كنتالوب!

زوهار عادت من جديد

كي ما يكون البحر متقدًا وأحشائي

زوهار حرّضتْ الشواطئَ و المحاراتِ وأصحابَ المقاهي

حين تُقتُ إلى دمي المسفوح في رمل الصحارى

الشيخ حامد لا يحبُّ الأخضر ما إن رآني سبّني

وأتى بناقته لتشرب ما تبقى من دمي

كي ما تسير

وتتم زوهار الطقوس !

قصيدته عن زوهار "ثمانينية" لكنها كافية لينعي شابًا، كان داخله.

(٢٤)

حكى لعوض ما حدث، ليتباهى انه أدرك وجوده بعد كل هذا العمر، أنا بن السابعة و العشرين أخيرًا استراحت يدي من القيام بدور الأنثى، الله يا عوض الله ، قال عوض: احذر يا أخ، الأمراض قتـــــالة، و هؤلاء بنات زواني، إسرائيليات لن تقول لك أنها مريضة، لا يهمها هي جاءت هنا من أجل هذا الهدف، تيك كير ماي برازر، إن كان ولابُدّ؛ فيديك أطهر وأضـــمن عشـــرات المرات، وبخيالك تجيب مارلين مونرو بين أحضانك!

سمير بن حكيم بائع البيض صنع ما يشبه ذلك الذي يطالبه به عوض الله السوداني تمامًا، مع محمد رجب و مراد، قال لهم بعد غيبة طويلة، أبدًا أنا كنت هنا، وعايش هنا، في الشـــرابية، وبنتقابل في المدرســـة، صح؟!

رد الاثنان : صـــح الصـــح، قال رجب، قصـــدنا إننا لم نركْ هنا على المقهى، حتى الســـينما كل أســـبوع أنت كنت تعزمنا و تيجي معنا في عماد الدين، إيه ماوحشتكش يا أخي البنت سحر بتاعة البليلة؟!

سمير الذي يكاد يغشى من الضحك، يقول: أخيرا يا ابو رجب سمعت كلام أبويا، ها أعيش من دلوقت ورايح، على مبدأ "وكأنّه حصلْ"..

قال مراد هو بيتكلم هندي النهاردة ولا إيه يا ســـي محمد، قال رجب: بالراحة علينا كده وقل لنا إيه اللى حصل؟!

أخرج سـمير من جيبه سـبعة جنيهات ونصـف، وقال مبتهجًا؛ ده بس حصيلة أسبوعين

أســبوعين شــغل؟! ســأله رجب، أجاب: لا لا ده اللى حوشــته من مصروفي اليومي، كل يوم نصف جنيه، ضحك رجب وقال متعجبًا، يا عم انت مصروفك اللى بتاخده من عم حكيم أبوك، أساسًا كله ٥٠ قرشًا في اليوم!، ماهو ده السر انجعص سمير في الكرسي و بدأ يروي لهم ما حدث؛ الراجل أبويا ده فعلا حكيم، اســم على مســمى، قال لي يا ســمير ياولدي ماتبقاش ايدك فارغة زي عيال المســلمين، اللى تاخده تصرفه، وتتفنجر ع الفاضي، قال رجب ضاحكًا، فين الفنجرة دي، هو احنا لاقيين أصلاً! المهم كمّل رواية حكيم زمانه كمّل ، المهم يا سيدي ، قال لي ايه؛ ســمير يا ولدي انت في تالتة ثانوي في شــهادة مهمة يعني، و بتسـهر تذاكر ربنا يقويك ياولدي، ولازم تاخد بالك من نفسك، تقوم الصبح بدري تغسل وشك، حاسب يا بني ماتكترش صابون علشان فيه كيماويات ضارة بصحتك، وانت شاب طالع للدنيا، اتشطفت سريع ســريع، ولبســت هدومك، ها تنزل طبعا، علشــان تاخد الأتوبيس من غمرة، ما تعملش زى عيال المســلمين يا ولدي و تتفتون، وتجري ورا الأتوبيس أو تتشعلق وتعرض نفسك للخطر، لا يا ولدي استنى مكانك

وأول الأتوبيس ما يتحرك اجرى وراه، هاتلاقي نفســـك وصـــلت أول محطة، والتانية ، و التالتة بقى اتمشـــاها براحتك، أديك وصـــلت عند المدرسة، خد من جيبك الشمال قرشين صاغ اللي هما أجرة الأتوبيس، وحطهم في جيبك الســـحري اللى في كمر البنطلون من جوه، طبعا ياولدي انت مشـيت وجريت ولســه على لحم بطنك ما فطرتش، اوعاك تعمل زي الطلبة التانيين وترمرم، وتاكل عيش وطعمية، لا ياولدي انت تعبت، هات رغيف بتعريفة، و رُوح اقف عند الكبابجي، شـــم ريحة المشوي براحتك، شم واقطم لقمة من الرغيف، خلصت الرغيف، قول: نشـــكرك يارب، اللهم زيدها نعمة واحمها من الزوال، وشـــيل من جيب البنطلون الشمال تمن رغيف الكباب، وحطه في الجيب السحر اللى فى الكمر، طبعا ياولدي انت أكلت وتقـّـــلت، لازم تهضّم بقى، اقف عن تلاجة الكاكولا، بُصْ للقزايز كويس، و اعتبر نفســـك شـــربت واتكرع ياولدي، وحط الخمســـة قروش تمن الســـبورت كولا في جيبك الســـحري برضـه، وانت راجع من المدرسة كذلك، وابقى شوف بقى، هاتبقى أغني واحد بين زملائك.

ضـــحك مراد بصـــوت عالٍ، وقال يا إما أبوك اتجنن، أو انت اعتبرتنا هِبْل وكاوركات علشـان نصـدق الفيلم ده، حلف سـمير بالانجيل لمراد، وحلف بالختمة الشريفة لمحمد رجب، لكن لم يصدقه أحد

هذا ما حكاه محمد رجب، مدير تحرير جريدة أخبار الحوادث، في نهاية التسعينيات، قال " مراد" ؛ يا جدي يا عم رجب ، انا شامم ريحة رواية أو فيلم انت عايز تكتبه!، حلف محمد رجب بالطلاق وبالله، دي واقعة حقيقية، وسمير حيٌ يُرزق أهه في الشرابية، وحتى تصدقني، أنا زرته الأسبوع الماضي، رأيته جالسا أمام محله الذي ورثه عن عم حكيم أبوه، وقد امتلأ كثيرا و شاب ماتبقى من شعره على جانبي رأسه، كان يجلس واضعاً ساقه اليسرى على اليمنى، ويديه في وضع من يدخن الشيشة، ما ان رآني نهض واقفًا وكأنه يضع "اللاي" على الكرسي، معلهش لا مؤاخذة يا ابو رجب، انت عارف كيف المعسل، يقول رجب، درت حول نفسي وحول الكرسي الذي كان يجلس عليه سمير ، لم أجد أي أثر لشيشة أو أي شيء، قال لي باين عليك نسيت، أنا مازلت بأنفذ وصية أبويا، الله يقدس روحه بقى، واعتبرني يا أخي شربت شيشة، إيه يعني!

(٢٥)

أجنحة البانجو التي حملت له أول امرأة، تؤكد له وجوده، لم يعشق منها سوى أنفها فهي التي قادتها إليه، وحطت بجانبه كحلم شرقي، لم تتركه إلاّ مجنونًا يصيح بانتصار وهمي بينما هو يزحف، لا يستطيع الوقوف على قدميه!

ها هي أجنحة البانجو أيضا، تقود إليه أول مخبر يرتدى شورت و فانلة بحمالات، لكن شاربه لا يزال هو هو، والجريدة المخرومة عند الكلمات المتقاطعة وصدق أو لا تصدق هي هي وبالتاريخ ذاته، القاهرة ١٧ أبريل ١٩٦١، يا ربي لم أكن ولدت، أمي كانت لا تزال تتوحم على الطعمية الخضراء التي لا توجد سوى في البندر، ستظل تعاني حتى ولادتي بعد ٨ شهور على الأقل!

مر عليه من يشبه الطيف، فاجأه بالسؤال: ماذا تفعل يا كلب الله؟! أفزعه السلام، وحين سأله وهل للرب كلاب يا ...من أنت ؟! ضحك الرجل الذي يرتدي البالطو الصوف في عز الحر، ما أدهشه أنه لم ير نقطة عرق واحدة في وجهه، رغم أنه أخبره بقدومه من أماكن بعيدة..

منك لله يا أستاذ سعد مكاوي*، ما الذي جعلني أضع هذه الرواية في حقيبتي من الأصل؟ ما هذا يا عم سعد؟ أنا أقرأ الآن "لا تسقني وحدي"، فيفاجئني أحد الهائمين من"السائرون نيامًا"؟!

يا كلب الله سآتى إليك مرة أخرى، العشب الأخضر طريقك للهلاك، وإن كان ولابد أن تبحث عن حضورك في حضرته، فعليك بـــ " البُنّي"، وإن كان يغيّبك عنك فهو عين عين وجودك في حضرته..

اختفي الرجل الذي لم يكن فارع الطول، لكنه طويل، ولم يكن ضـــخمًا، لكنه طوال لحظات وجوده؛ حجب عن "عقل" رؤية البحر، وســـماع وشيشه، وكلما استدار متحججًا بفعل شيء، كان يواجهه، رغم أنه لم يتحرك من أمام باب الكُشك الخشبي!

عبر عبد المالك ابو اسكندر مع كثيرين مثله ممن كانوا يسافرون إلى ليبيا سلكاوي، تحت السلك الشائك من نفق أعده المهربون، بعد مسيرة ثلاثة أسابيع ونصف بلياليهم، من غرب المنيا إلى الواحات ثم سيوة و مطروح والســـلوم، الصـــحارى ممتدة و كثبانها، تتلوى في ليل بدايات الشـــهر القمري، كأنها كلاب و أســـود وغيلان، ســـقط عبد المالك في حفرة، وصـــرخ، للدرجة دي تعمل عقلك بعقلي؟! أنا كلب من كلابك، وان كنت غلطت فيك وانا في "قلندول"، برضـــه كده تيجي ورايا في ليبيا؟!.. عهد عليّ وحياة الليل وِمْسَـــاه، لما أرجع بلدنا، ســـأفتح بابي حين يمر القمص يوحنا عبد الله، وسأبتسم له بحبٍ، ولن أغلقه أبدًا في وجه المعلم أيوب الأعمى أو حسيب ابو محمد العبيط وصـــاحبه الواد حكيم بن سيسيل الغلبان، خلاص يا عم أنا عرفت أن دول رجالتك في قلندول!، وكمان علشـــان حلقي اللى اتشـــقق من العطش ده ، ها احط

زيرين مياه ساقعة قدام البيت، بس خلينا أوصل بني غازي، وأبقى فيها سنة واحدة أو سنتين تلاتة كده..

نجا عبد المالك من حفرة الحدود، و سار مع مجموعة، حتى وصل بنغازي، أقدامه تورمت، حلف أمام من كانوا معه، أن أول مكان سيبحث عنه في بنغازي، هو أي كنيسة، أرثوذكس أو بروتستانت، لا يهم، ولكنه تراجع سريعًا، وأصر؛ لازم أرثوذكس يا عبد المالك.. لازم، الكنيسة البروتستانتية مافيهاش هيكل ولا مذبح، ولا صور، وسيدخلها كي يقف أمام أيقونة العذاب، رأس المسيح مضفورًا فوقه تاج الشوك والدماء نازفة منه، سيقول له؛ أنا كمان صار لي ٣٣ يومًا لم أنم إلاّ مغميًّا عليّ من شدة التعب ونار ظهيرة الصحراء التي ترعش أطرافي طوال الليل، وأقدامي متورمة، كلانا تعذّب، بس أنا برضه لازلت أقول إنني ابن اسكندر، انا بن البشر، ومستعد أضحي بباقي جسمي، علشان الأربعة وأمهم ومعهم أمي الغلبانة يعيشوا وسط الناس، ليكن في معلومك، انا جيت هنا و مش ها امشي غير لما يبقى معي ثمن القيراطين اللى انا مستأجرهم، اتصرف بقى، انا عارف إنني كعبد المالك لا أستحق، لكن علشان الأربعة وأمهم وأمي، وحياة خاطر أمك الطاهرة، أنا عارف انك ها تتصرف بقى!